

من أسرار النعير الفرائد خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

مكتورة
أمينة محمد عبده سليم

مدرس البلاغة والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر - بنات الإسكندرية



من أسرار التعبير الفرائدي خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

مكتوبة
أمينة محمد عبده سليم

مدرس البلاغة والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر - بنات الإسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لقد قامت دراسات كثيرة ومتنوعة حول القرآن الكريم، في محاولة إلى تدبر معانيه والكشف عن بعض أسرارهِ البلاغية لإظهار بعض وجوه إعجازه، ولكن هذا المجال لا يزال بكراً يحتاج إلى جهود العلماء والباحثين المتخصصين للكشف عن مواطن الإعجاز فيه والوقوف على بعض أغراضه.

نعم، إنه القرآن الكريم، أسلوب فريد لا يسامى ولا يصل إلى بعض مراميهِ إلا كل باحث مخلص نذر حياته للعمل في خدمة كتاب الله، لما فيه من معجزات أبدية لا تنتهى ولا تخلق على كثرة الرد، فما زال العقل يقف متحيراً، أمام جلال تنزيله مبهوراً من جمال نسقه وبلاغته، فهو المعجز للبيان في جميع صوره وألوانه، فقد عجز العرب عن الإتيان بمثله في تحديدهم، وقد نزل من جنس كلامهم، فقهرهم.

وها نحن اليوم أمام هذه الدراسة القرآنية العظيمة، نحاول من خلال أساليبه المختلفة أن نقف على أسرار التعبير القرآنى في خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، فهو ميدان لم نظفر فيه بدراسات كثيرة، ولذلك عقدت العزم على البحث فيه مستعينة بكتاب الله، ومصادر أهل العلم القدماء، حتى أقف على بعض أسرارهِ، فخرجت بكنوز ثمينة من المعاني القرآنية المعجزة، إلا أن الطريق كان صعباً وليس معبداً، لأننا وجدنا هذا الموضوع متفرقاً، وبخاصة التغليب لم يأخذ حظه من الترتيب والتبويب والاهتمام، حتى يستطيع الباحث أن يجمعها ويقف على أسرارها وقيمتها البلاغية، لكنها مطروحة دون استقلال عن باقى أبواب البلاغة، فاحتاجت إلى جهد الباحث الدقيق المتأنى حتى يجمع شتاتها، ويلم شعنها ويحاول

التفرقة بين هذا الأسلوب وذاك، وليس هناك آراء كثيرة في هذا اللون من ألوان التعبير على كثرة فروعه، وتراعى أطرافه، وهذا مما جعلنى أعتقد العزم على مواصلة هذا العمل ليل نهار، حتى أصل إلى ما فيه إيضاح لبعض المواطن التى كانت غامضة، مستعينة بالله وكتب التفسير المختلفة وآراء العلماء فيها، حتى يكون هذا البحث سهلاً ميسوراً، لمن يعمل فى هذا المجال.

فعرضت لتذكير المؤنث، وتأنيث المذكر، وأسلوب الالتفات، وأسلوب الحكيم، وتجاهل العارف، وخروج الكلام عن مقتضى الظاهر، فى وضع المظهر موضع المضمهر وعكسه، والتعبير بالماضى عن المستقبل وعكسه، والقلب، وترتيب صيغ الأفراد والنثنية والجمع والعكس، وما جاء بصيغ مختلفة يحل بعضها مكان بعض، كما بينت ما جاء فى أسلوب القرآن الكريم من تغليب العقلاء على غيرهم، ووضع الإنشاء موضع الخبر وعكسه.

فأرجو أن أكون قد وفقت ليسد هذا البحث مكاناً فى المكتبة البلاغية.

والحمد لله أولاً وآخراً، وإن كانت الأخرى فالكمال لله وحده.

وما توفيقى إلى بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المؤلفة

الفصل الأول

حقيقة التغليب

حقيقة التغليب

التغليب باب واسع يجرى فى فنون كثيرة تناوله علماء اللغة والأدب، فرى أبا عبيدة معمر^(١) بن المثنى ت ٢١٠ هـ يذكره ويعرض له شواهد دون الوقوف على الغرض البلاغى، أو التعريف به.

كذلك نجد المبرد^(٢) ت ٢٨٥ هـ ينقل عن العرب أمثلة للتغليب فيقول : الأسودان : التمر والماء، والأحمران اللحم والنبذ، وقالوا أيضا الأحامرة : اللحم والنبذ والزعران، والأبيضان : الشحم واللبن، وقيل : الماء واللبن، وذهب منه الأطييان : الطعام والنكاح، والحجران : الذهب والفضة، والعصران : الغداة والعشى، والقمران : الشمس والقمر، والعمران : أبو بكر وعمر^(٣)، والملوان : الليل والنهار، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَجْرُنِي مِثْلًا﴾^(٤) أى دهر^(٥)، إلى غير ذلك من أسماء كثيرة. وعليه قول ابن مقبل :

ألا يا ديار الحى بالسبعان أمل عليها بالبللى الملوان

يعنى الليل والنهار - أى رجع عليها حتى أبلاها : أى طال عليها.

ويذكر المبرد أمثلة كثيرة للتغليب، دون أن يضعها تحت هذا الاسم، وإنما يكتفى بسرد شواهد.

^(١) مجاز القرآن، ج ١ ص ١١ وما بعدها، وتلخر شروح الطبعين، ج ٢ ص ٥٦.

^(٢) الكامل، ص ٢١ - ٢٢.

^(٣) للتغلب للمبرد، ج ٤ ص ٣٢٦

^(٤) مريم : ٤٦.

^(٥) مجاز القرآن لأبى عبيدة، ج ١، ص ٨.

أما الرضى الاسترلابي^(١) ت ٦٨٤ هـ فيتناوله بشكل سريع فيطلب المذكور على المونث، والعائل على غير العائل، وبذلك يضع قاعدة، ولكنها غير دقيقة^(٢)، لأن التقلب قد يقع بين المذكرين كالعمرين في أبى بكر وعمر، وغير العائلين كالحجرين في الذهب والفضة، وعندئذ يحتاج التقلب إلى قاعدة أخرى أعم وأشمل، لتسد الثغرة التى ينفذ من خلالها الطعن فى القاعدة السابقة.

ويتفق كل من ابن الحاجب ت ٦٤٦ هـ، والطيبى ٧٤٣ هـ فى تغليب الأدنى على الأعلى أو العكس، بينما يرى السيوطى ت ٩١١ هـ فى معترك الأكران أن التقلب ليست له قاعدة معروفة يسير العلماء على هديها.

فيقول : إنه قد ورد تغليب الأدنى على الأعلى تارة، وتغليب الأعلى على الأدنى تارة أخرى، وتعارض السماع من الجهتين، فلم أنه ليس لذلك قاعدة مطردة، ثم يبين أن العرب تغلب الأفضل : كالأبوين، وتارة الأخف كالعمرين، وتارة المذكور : كالعمرين.

وقال ابن رشيقي فى العمدة^(٣) إن الكسائى ت ١٨٣ هـ قال : إن التغليب فى العمرين إنما هو لكثرة الاستعمال فإن أيام عمر أطول من أيام أبى بكر رضى الله عنهما، وكذلك ذكره ابن الشجرى^(٤).

ونرى السبكي ت ٧٧٣ هـ فى عروس الأفرار^(٥)، يذكره مرة على

^(١) شرح الكافية، ج ٢، ص ١٨٦.

^(٢) فن البلاغة، بصرف د/ عبد القادر حسين، ص ٣١٩.

^(٣) العمدة لابن رشيقي، ص

^(٤) شروح التلخيص، ج ١، ص ١٥٤، ونظر فى البلاغة بصرف، ص ٣١٩.

^(٥) شروح التلخيص، ج ٢، ص ٥٨.

سبيل الاستطراد في علم المعاني، وأخرى في علم البديع^(١).

ويتفق الخطيب القزويني ت ٨٣٧ هـ مع السبكي في عده للتغليب ضمن المحسنات البديعية^(٢)، وفي رأى آخر له قال : يصح أن يلحق بعلم البيان.

أما الزركشى ت ٧٩٤ هـ صاحب البرهان، فقد أفرد بابًا واسعًا مرتبطًا للتغليب وألوانه المختلفة.

آراء العلماء في التغليب :

اختلف علماء اللغة والأدب في تناولهم للتغليب من حيث الحقيقة أو المجاز، فمنهم من قال : إنه مجاز ومنهم من عارض ذلك.

فقد ذكر الخطيب القزويني^(٣) : أن التغليب وألوانه لا يعد من المجاز، لأن المجاز نقل اللفظ من معنى إلى آخر، أما التغليب فهو كالمشكلة الآتية في البديع، فإنما ينقل فيه المعنى من مكان إلى مكان لا اللفظ.

كذلك نرى السعد التفتازاني ت ٧٩٣ هـ صاحب المطول قد اعتبر التغليب بألوانه وأمثله من المجاز، لأن اللفظ لم يستعمل فيما وضع له. أما البهاء السبكي تناولته مرة في علم المعاني ومرة في علم البديع^(٤).

وهناك من قال إن التغليب من المجاز المرسل لعلاقة المجاورة^(٥)،

^(١) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٧٣.

^(٢) بقية الإيضاح، ج ١، ص ١٩١ للمعاش.

^(٣) بقية الإيضاح، ج ١، ص ١٩١.

^(٤) بقية الإيضاح، ج ١، ص ١٩١.

^(٥) حروس الأفراح ضمن شروح فتحه، ج ٢، ص ٥٤.

أما للزركشى فقد عده من المجاز^(١).

ومهما يكن من شيء فإننا الآن بصدد دراسة هذا الباب وألوانه المختلفة حتى نقف عند أغلب أساليبه والقيمة البلاغية من وراء هذه الدراسة، خاصة وأن ألوانه المختلفة كانت موضع اهتمام علماء التفسير، إلى جانب علماء اللغة الأدب، وأن جل شواهد من القرآن الكريم.

(١) البرهان، ج ٢، ص ٣١٢.

الفصل الثانى

أسرار الأفراد فيما ظاهره التثنية

أسرار الأفراد فيما ظاهره الثنية

هذا الأسلوب يقع ضمن أساليب التغليب المختلفة، وقد ورد عن العرب، والقرآن الكريم كثير من الشواهد فمن ذلك قول حسان بن ثابت :

إن شرخ الشباب والشعر الأسود ما لم يعاص كان جنونا

ويتناولوه ابن الشجرى بالتعليق فيقول : ما لم يعاص فأفرد الضمير وإن كان لاثنتين، وحق الكلام أن يقال : "يعاصيا" ثم ذكر العلة البلاغية في وضع المفرد موضع المثنى بقوله : ذلك لأن كل واحد منهما بمنزلة الآخر فجريا مجرى الواحد، ألا ترى أن شرخ الشباب هو اسوداد الشعر ؟ ولأنهما مصطحبان صارا بمنزلة المفرد^(١).

ومنه قول الأعشى :

فرجى الخير وانتظري إياي إذا ما القارظ العنزي آبا

وإنما هما قارظان، فالمثل "حتى يئوب القارظان"^(٢) فعبر بالمفرد، وأراد المثنى، وإنما قال ذلك لعله بلاغية، وهى أنهما صارا كالشبيين لا يغنى أحدهما عن الآخر، فلذلك عبر عنهما بصيغة المفرد^(٣).

قال الرضى فى شرح الكافية، وقد يقع المفرد موقع المثنى فيما يصطحبان ولا يفترقان، كالرجلين والعينين، تقول : لا تقام أى عيناى^(٤).

^(١) هامش تأويل مشكل القرآن، ص ٢٢٢، وانظر فن البلاغة ص ٢٩٨ د/ عبد القادر حسين، وانظر أسلوب التغليب، ص ١١ د/ صفا.

^(٢) من أمثلهم "لا يكون ذلك حتى يئوب القارظان" وهما رجلان أحدهما من عترة والآخر عامر بن غنيم جرجا يبيتان القرظ فلم يرجعا فصب بهما المثل، انظر للسان مادة قرظ.

^(٣) عقود الجمان للسيوطى، ج ١، ص ١١٤، وانظر فن البلاغة، ص ٢٩٩ د/ عبد القادر حسين.

^(٤) شرح الكافية الرضى، ج ٢، ص ١٧٧

فالعلة البلاغية إذا في وضع المفرد موضع المثنى هي أن الاثنين متلازمان متصاحبان، يتصل أحدهما بالآخر أشد الاتصال، ويرتبط به كل الارتباط فصارا كأنهما شيء واحد، لا شئين مختلفين فحق حينئذ أن يعبر عنهما بلفظ المفرد، وليس بلفظ المثنى^(١).

وقد وردت آيات بينات توضح فائدته وقيمته البلاغية في التعبير كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَتَنْزِيلُكُنَا بِأَمْرِ مُوسَى ﴾^(٢) أي "ويا هارون" ويقول صاحب البرهان^(٣) وفيه وجهان :

أحدهما : أنه أفرد موسى عليه السلام بالنداء بمعنى التخصيص والتوكف، إذ كان هو صاحب عظيم الرسالة وكريم الآيات، ذكره ابن عطية. والثاني : لما كان هارون أفصح لساناً منه على ما نطق به القرآن ثبت عن جواب الخصم الأكد، ذكره صاحب الكشف^(٤)، وانظر إلى الفرق بين الجوابين.

ومثله : ﴿ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْنَى ﴾^(٥) قال ابن عطية : إنما أفرزه بالشقاء من حيث كان المخاطب أولاً والمقصود في الكلام، وقيل بل ذلك لأن الله جعل الشقاء في معيشة الدنيا في خيـز الرجال، ويحتمل الإغضاء عن ذكر المرأة، ولهذا قيل : من الكبرم ستر الحرم^(٦) . وقوله

^(١) في البلاغة، ص ٢٢٩ د/ عبد القادر حنين.

^(٢) طه : ٤٩.

^(٣) البرهان، ج ٣، ص ٢٤٩.

^(٤) الكشف، ج ٢، ص ٢٦.

^(٥) طه : ١١٢.

^(٦) البرهان، ج ٢، ص ٢٤٩.

تعالى : ﴿فَإِيَّايَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) ونحوه في وصف الاثنين بالجمع قوله تعالى : ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾^(٢) . وقال : ﴿هَذَا خِصْمَانِ اخْتَصِمُوا﴾^(٣) ولم يقل "اختصما" وقال "فتاب عليه"، ولم يقل "عليهما" اكتفاء بالخبر عن أحدهما بالدلالة عليه^(٤) .

ومن أمثلة هذا الأسلوب ما جاء في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٥) فقد ورد التعبير بالإنفراد في الضمير عند قوله "أن يرضوه" والحديث عن الله ورسوله، فظاهر السياق التعبير بالثنائية "يرضوهما".

وقد ذكر الزمخشري في كشافه : وإنما وجد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله ﷺ فكانا في حكم مرضى واحد. لتلازم الرضاعين. أما أبو السعود^(٦) : فيرى في تفسيره أن إفراد الضمير في "يرضوه" إما للايذان بأن رضاه ﷺ مندرج تحت رضاه سبحانه، وإرضاءه لإرضاء له تعالى لقوله تعالى : ﴿مَنْ يَطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

^(١) الشعراء : ١٦ .

^(٢) الشعراء : ٤ .

^(٣) الملعج : ١٩ .

^(٤) البرهان، ج ٢، ص ٢٤٩ .

^(٥) التوبة : ٦٢ .

^(٦) تفسير أبو السعود على هامش التفسير الكبير، ج ٥، ص ١٥٤ .

وإما لأنه مستعار لاسم الإشارة الذي يشار به إلى الواحد والمتعدد بتأويل المذكور، كما في قول روبة :

فيها خطوط من سواد ويلق كأنه في الجلد توليع البهق

أى كان ذلك لا يقال، أى حاجة إلى الاستعارة بعد التأويل المذكور لأننا نقول : لولا الاستعارة لم يتسن التأويل، وإما لأنه عائد إلى رسوله، والكلام جملتان، حذف خبر الأولى لدلالة خبر الثانية عليه.

وما نميل إليه من الآراء السابقة أن الله سبحانه أفرد الضمير في الآية لما صرح به من أن طاعته سبحانه وتعالى طاعة لرسوله ﷺ كما أن طاعة الرسول طاعة الرب، وهذا يلزمه التعبير بالإنفراد.

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَتِمُّوا صَبْرَكُمْ﴾^(١). فقد ورد التعبير بالثنائية في الأمر، ثم الإفراد في النهي، "ولا تولوا عنه" وظاهر السياق التثنية "تولوا عنهما".

واحتمالات أخرى ذكر منها أنه أفرد باعتبار عود الضمير إلى الله وحده لأنه الأصل مع أن طاعة الله وطاعة رسوله متلازمان. قال تعالى ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٢) فكان الإعراض عن الرسول إعراضاً عن الله فاكتمى بذكره، ومنها أن معناه : ولا تولوا عن هذا الأمر وأمثاله، فالضمير للأمر لا للرسول ﷺ.

^(١) الأنفال : ٢٠.

^(٢) النساء : ٨٠.

ومنه قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(١) فقد ورد التعبير

بصيغة الإفراد فى "آية" وظاهر السياق التنثية.

ويرى القراء أن سر الإفراد فى قوله "آية" ولم يقل آيتين لأن شأنهما واحد، ولو قيل آيتين لكان صواباً، لأنها ولدت وهى بكر وتكلم عيسى فى المهد فتكن آيتين إذا اختلفتا^(٢).

وتابع القراء كثير من أهل التفسير^(٣)، والحقيقة إنما يكمن سر الإفراد هنا، فى قوله : "آية" لأن ميلاد عيسى عليه السلام دون أب وكلامه فى المهد، إنما هو معجزة خاصة به هو دون غيره، فهو بماحدث له يصح أن يكون علامة، أو آية، وهذا الرأى يتوافق مع الآراء السابقة ولا خلاف عليه، فالإفراد جاء فى موقعه ومقتضى حاله.

وأما ما جاء فى قوله تعالى، من هذا الأسلوب فى قصة فرعون مع موسى وهارون، ففى قوله تعالى : ﴿فَأَيُّهَا فِرْعَوْنُ قُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤) فقد ورد التعبير بالإفراد فى قوله : "رسول" وظاهر السياق التنثية لأن المرسل إليّ فرعون كان موسى وهارون.

وللفخر الرازى رأى دقيق فى الكشف عن سر الإفراد فى هذه الآية، وعبارته فى ذلك، وأما قوله تعالى : ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ففيه

^(١) الأنبياء : ٩١.

^(٢) معانى القرآن للقرامى ج ٢، ص ٢١.

^(٣) التفسير الكبير، ج ٦، ص ١٢٢، الكشف، ج ٢، ص ٥٨٢، البحر المحيط، ج ٦، ص ٢٢٦، تف

أبى السعود، ج ٧، ص ١٠٢.

^(٤) الشعراء : ١٦.

سؤالان وهو أنه هلاثنى الرسول كما ثنى قوله : ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ﴾^(١)
وجوابه من وجوه منها : أن الرسول اسم للماهية من غير بيان تلك الماهية
واحدة أو أكثر، والألف واللام لا يفيدان إلا الوحدة للاستغراق، ثم قال :
وإذا ثبت أن لفظ الرسول لا يفيد إلا الماهية، وثبت أن الماهية محمولة
على الواحد وعلى الاثنين ثبت صحة قوله، إنا رسول رب العالمين.
ومنها أنهما لاتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما بسبب الأخوة كأنهما
رسول واحد.

ومنها المراد كل واحد منا رسول، ومنها إنما قال ذلك لكون
موسى هو الرسول خاصة^(٢).

والحقيقة أن ما قاله "الفخر الرازى" من احتمالات واشترك معه
صاحب البحر المحيط هو حق وأصاب كبِد الحقيقة، إلا أنى أقول إن
العرب تنطق إنا على أنها نحن، فعلى هذا يكون التعبير للغوى مناسباً
للمقام فى قوله : نحن رسول، والجماعة تقول هكذا، وينطبق هذا التعبير
على الاثنين أيضاً لأن أقل الجمع اثنين، فقد جاء التعبير القرآنى موافقاً
للمقتضى والمقام ولغة العرب.

وكذلك قوله تعالى : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾^(٣) أفرد فى
قوله "قعيد" وظاهر السياق التثنية «قعيدان يرى القراء أن الأصل : عن
اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف أحدهما لأن المعنى معروف»^(٤).

^(١) التفسير الكبير، ج ٣، ص ٣٦٥.

^(٢) ق : ٧.

^(٣) معانى القرآن، ج ٢، ص ١٩٢.

والفراء بذلك يقول : إن حذف الثانى لدلالة الأول عليه أو حذف الأول لدلالة الثانى عليه، وهذا من الأمور المتفق عليها فى علم المعانى.

والحقيقة أن وزن هذه الآية وزان الآية السابقة لأنه يصح أن تقول للجماعة وللمنشى هذا الوصف فنقول، هما قعيد، لعدم انفكاك الجهة، فلو أننا قلنا "قعيدان" لاحتمل الانفكاك والمفارقة وهما بطبيعة الحال مكلفان تكليفاً واحداً وعملهما واحد فهما على ما يقتضيه الحال والمقتضى، فيكون التعبير بقعيد أبلغ. كما أن "قعيد" على وزن فعيل صيغة مبالغة، وهذه الصيغة يصح التعبير بها فى كل أحوال اللفظ العربى.

الفصل الثالث

أسرار الأفراد فيما ظاهرة الجمع

أسرار الأفراد فيما ظاهرة الجمع

وهو أحد أساليب التغليب المراد به أن يأتي بصيغة الإفراد على أن سياق الظاهر التعبير بالجمع.

كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾^(١).

فترى أبا حيان يقول : إن أخذنا للعموم واذلك دخلت "من" عليها كقوله تعالى : ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾^(٢)، والمعنى بين آحادهم، ثم ينقل عن بعضهم قوله : «وَأَحَدٌ قِيلَ إِنَّهُ بِمَعْنَى جَمِيعٍ وَالتَّقْدِيرُ بَيْنَ جَمِيعِ رُسُلِهِ وَقَالَ أَيْضًا... لَا يَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي النَّبُوءَةِ»^(٣). ويرى احتمالاً آخر وهو أن يكون التركيب مما حذف فيه المعطوف لدلالة المعنى عليه والتقدير لا يفرق بين أحد من رسله وبين أحد، فيكون أحد هنا بمعنى واحد^(٤).

والحقيقة إننا إذا نظرنا بدقة نجد أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، فلن ما جاء في قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ تَوْحَاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(٥).

(١) البقرة : ٢٨٥.

(٢) الحاقة : ٤٧.

(٣) البحر المحيط، ج ٢، ص ٣٧٥.

(٤) التفسير الكبير، ج ٢، ص ٣٦٥.

(٥) الشورى : ١٣.

هذه الآية الكريمة جعلت الشرائع كلها فى دين واحد اجتمعوا فى رسول واحد، فقال أحد بالإفراد هذه واحدة.

أما الثانية : فإنه لما قال "بين" والمباينة لا تكون بين شىء واحد، بل تكون بين شيئين وأكثر، فهنا احتمال أن يكون فى الآية إيجاز بالحذف على تقدير "بين أحد والآخرين من رسله" وهو ما أشار إلهى فخر الدين الرازى^(١).

ومن أمثلة هذه اللون قوله تعالى : ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾^(٢).

فقد ورد التعبير بالإفراد فى "رفيقاً" وسباق الظاهر الجمع أى "رفقاء".

أما صاحب معانى القرآن^(٣) : فقد كانت له نظرة لغوية فى الكشف عن سر الإفراد فى "رفيق" وعبارته وإنما وجد الرفيق وهو صفة الجمع، لأن الرفيق والبريد والرسول تذهب به العرب إلى الواحد وإلى الجمع، فلذلك قال : "وحسن أولئك رفيقاً".

ولا يجوز فى مثله من الكلام أن تقول : "حسن أولئك رجلاً" ولا تبع أولئك رجلاً وإنما يجوز أن توجد صفة الجمع إذا كان اسماً مأخوذاً من فعل، ولم يكن اسماً مصرحاً مثل رجل وامرأة.

^(١) التفسر الكبير، ج ٢، ص ٣٦٥.

^(٢) النساء : ٦٩.

^(٣) معانى القرآن، ج ١، ص ٢٦٨.

والزمخشري يجوز أن يكون "رفيقاً" مفرداً مراداً به الجنس في باب التمييز^(١).

وقد انتفع الرازي بما قاله الفراء في مثل هذا التعبير^(٢) وهو ما ذهب إليه علماء اللغة، وتابعهم فيه المفسرون فيما جاء من تعليل الإفراد، وهو ما يتناسب مع مراعاة للحال والمقام.

ومن أمثلة هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَأْ قُلُوفًا ثَمَرًا﴾^(٣) وقد ورد التعبير بالإفراد في "مثله" والمعنى على الجمع "أمثاله مفتريات".

وقد أفاد أبو حيان في البحر المحيط أن "مثل" يوصف به المفرد والمثنى والجمع، كما قال في آية أخرى ﴿أَنزِلْنَا لِبَشَرَيْنِ مِثْلًا﴾^(٤) كما أنه تجوز المطابقة في التثنية والجمع كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا امْتَالِكُمْ﴾^(٥) ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكُونِ^(٦).

وأبان أنه إذا أفرد وهو تابع المثنى أو مجموع فهو بتقدير المثنى والمجموع أى مثليْن وأمثال، والمعنى هنا بعشر سور أمثال ذهابنا إلى معاتلة كل سورة منه له^(٧).

(١) الكشاف، ج ١، ص ٥٤٠.

(٢) التفسير الكبير، ج ٣، ص ٢٦٠.

(٣) هود: ١٣.

(٤) التوحيّد: ٤٧.

(٥) محمد: ٢٨.

(٦) الواقعة: ٢٢.

(٧) البحر المحيط، ج ٥، ص ٢٠٨.

وامتسهد أبو حيان بما قاله "ابن عطية" من أنه قد وقع التحدى فى هذه الآية بعشر لأنه قيدها بالافتراء فوسع عليهم فى القدر لتقوية الحجة غاية القيام، إذ قد عجزهم فى غير هذه الآية بسورة مثله دون تقيد، فهى مماثلة تامة، وعجزوا فى هذه الآية بأن قيل لهم عارضوا القدر منه بعشر أمثاله، فى التقدير والغرض واحد، وجعلوه مقترى لا يبقى لكم إلا نظمه.

فهذه غاية التوسعة، ويؤيده أن التكليف فى آية البقرة إنما هو سبب الريب ولا يزيل الريب إلا العلم بأنهم لا يقدرّون على المماثلة التامة، وفى هذه الآية إنما التكليف بسبب قولهم افتراء وكلفوا نحو ما قالوا^(١).

وما ذهب إليه أبو حيان قد سبقه إليه الزمخشري فى كشفه، وعبارته فى ذلك "مثل بمعنى أمثاله ذهابًا إلى مماثلة كل واحدة منها له".

ويرى أن السرفى تأويل الخطاب بكونه جمعًا فى "فاعملوا" بعد الإفراد "قل" أن المعنى فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لأن الرسول ﷺ والمؤمنين كانوا يتحدّونهم.

وقد قال فى موضع آخر، فإن لم يستجيبوا لك فاعلم. كما أنه يجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله^(٢). ومن أمثلة هذا الأسلوب ما جاء فى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّ هَؤُلَاءِ ضِيفِي فَلَا تَضْحَكُنَّ﴾^(٣).

فقد ورد التعبير فى الآية بالإفراد فى "ضيفى" وسياق الظاهر الجمع "ضيفى" لطابق الخير المبتدأ.

^(١) البحر المحيط، ج ٥، ص ٢٠٨.

^(٢) الكشف، ج ٢، ص ٢٦٦.

^(٣) البحر: ٦٨.

ويذهب أبو السعود في تفسيره إلى أن الضيف في الأصل مصدر يطلق على الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث وإطلاقه على الملائكة بحسب اعتقاده عليه السلام لكونهم في زى الضيف^(١)، وبما أن الملائكة جنس واحد، فغير عنها بالإفراد وجاء هذا التعبير موافقاً للجنس. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾^(٢).

وكذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا بَلَاحُ السَّاحِرِ حَيْثُ أَتَى﴾^(٣).

فقد ورد التعبير بالإفراد في "ساحر" وسياق الظاهر الجمع، إنما صنعوا كيد سحرة لأن العمل عمل سحرة فالتصديق في هذا الإفراد إلى معنى الجنسية لا إلى المعنى العدد، لأنه لو جمع لخيّل أن المقصود هو العدد، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ﴾ أى هذا الجنس وقد أشار إلى هذا المعنى كل من الزمخشري والفخر الرازي^(٤) ومن أمثلة التغليب في هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿هَآؤُنَّ النَّاسُ إِنِ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾^(٥).

^(١) تفسير أبو السعود على هامش التفسير الكبير، ج ٥، ص ٢٨٣.

^(٢) اللغات: ٢٤.

^(٣) ط: ٦٩.

^(٤) الكشاف، ج ٢، ص ٥٤٥، والتفسير الكبير، ج ٦، ص ٥٢.

^(٥) الجمع: ٥٠.

فقد ورد التعبير بالإفراد فى قوله "طفلاً" وسباق الظاهر الجمع "أطفالاً" وقد أشار ابن جنى إلى سر التعبير بالإفراد فى الآية بأنه قد حسن لفظ الواحد هنا لأنه موضع تصغير بشأن الإنسان وتحقير لأمره، فلاقى به ذكر الواحد لذلك، ولقلته من الجماعة وعنده أيضاً أنه يتلقى فى احتقاره وقلة شأنه، بقلة شأن المفرد عن الجمع، فضالة اللفظ علامة على ضالة المعنى^(١).

ويرى المفسرون^(٢) أن سر الإفراد فى الآية الدلالة على الجنس، أو باعتبار كل واحد منهم فيحتمل أن يخرج كل واحد طفلاً كقوله تعالى : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾^(٣).

وهذا رأى ما نميل إليه، ويعتبر أدق من نظرة ابن جنى.

(١) المحصب لابن جنى، ج ٢، ص ٣٦١.

(٢) الضمير الكبير، ج ١٦، ص ١٤٥، وانظر تفسير أبو السعود، ج ٧، ص ١١٣.

(٣) التحريم : ٤.

الفصل الرابع

أسرار التثنية فيما ظاهره والإفراد

أسرار التثنية فيما ظاهره الأفراد

هو لون من ألوان التغليب المراد به أن يأتى التعبير بصيغة التثنية وظاهر السياق التعبير بالأفراد.

وقد عرف العرب هذا اللون، فجاء فى شعرهم ونثرهم خاصة عند مخاطبة الصديق والرفيق، أو التجريد.

ومن ذلك قول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فهو من قبيل التجريد حيث جرد الشاعر من نفسه إنساناً آخر وخاطبه بضمير المثنى، والغرض البلاغى منه الاستئناس فى الرحلة الطويلة، حيث الصحراء المترامية الأطراف. وقوله أيضاً :

خليلى مرابى على أم جندب نفذى لبائبات الفؤاد المعذب
ثم قال :

ألم تر أنى كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب
فقال ألم تر، فرجع إلى الواحد وأول كلامه اثنان.

وقول آخر :

فقلت لصاحبى لا تحبانا ينزع أصوله واجتز شحنا
وقول الشاعر :

فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر

وإن تدعسان أحسم عرضاً ممعناً

يعلق عليه الفراء بقوله : إن الرجل أدنى أعوانه في إيله وغنمه
اثنان، وكذلك الرقعة أدنى ما يكونون ثلاثة، فجرى كلام الواحد على
صاحبيه، ألا ترى أكثر شيئاً قليلاً : يا صاحبي، يا خليلي، فهم يؤمرون
الواحد والقوم بما يؤمر به الإثنان فيقول للرجل : قوما عنا^(١).

وما ارتأه الفراء أكده "الرضي" في شرح الكافية من أن الشعراء
يعدلون عن التعبير بالمفرد إلى التثنية خاصة في مخاطبة الرفيق
والصديق، لأن أكثر الرفقاء ثلاثة. فكل واحد منهم يخاطب صاحبيه في
الأغلب، فيخاطب الواحد أيضاً مخاطبة الإثنين لتمرن السنتهم عليه^(٢).

ومنه قوله تعالى : ﴿يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ﴾^(٣) وإنما يخرج
من أحدهما، ونظيره قوله تعالى : ﴿وَمِنْ كُلِّ تَاكُوتٍ لَحْمًا طَرِبًا وَسَخَّرَ جُودًا
جَلِيَّةً تَلْبَسُوهَا﴾^(٤) وإنما تخرج الحلية من "الملح" وقد غلط في هذا المعنى
أبو ذؤيب الهذلي حيث قال يذكر الدرة :

فجاء بها ما شئت من لطمية يدوم الفرات فوقها ويموج

^(١) معاني القرآن للفراء ج ٢، ص ٧٨.

^(٢) شرح الكافية، ج ٢، ص ١٧٧، وانظر أسلوب التظليل ه/ عمود صفاء، وانظر الفوائد في مشكل

القرآن، ص ١١٨.

^(٣) الرحمن : ٢٢.

^(٤) فاطر : ١٢.

والفرات لا يدوم فوقها، وإنما يدوم الأجاج.

وقال "أبو علي" في قوله تعالى: ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(١)، بأن ظاهر اللفظ يقتضى أن يكون من مكة والطائف جميعاً، ولما لم يمكن أن يكون منها دل المعنى على تقدير "رجل من إحدى القرينتين"، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِ نُورًا﴾^(٢) أى فى إحداهن^(٣)، وقوله تعالى ﴿نَسِياً حَوْثَماً﴾^(٤) والناسى كان يوشع، بدليل قوله لموسى ﴿فَلَنِي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾^(٥) ولكن أضيف النسيان لهما جميعاً لمكوت موسى عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُوْثِقُ لَكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾^(٦)، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفِئَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا اقْدَرْتُمْ بِهِ﴾^(٧).
فالجناح على الزوج لأنه أخذ ما أعطى، قال أبو بكر الصديق
المعنى: فإن خيف من أحدهما ذلك جازت الفدية، وليس الشرط أن يجتمعا
على عدم الإقامة. وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ خَافٍ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾^(٨).

(١) الفرقان: ٢١.

(٢) نوح: ١٦.

(٣) الرومان: ج ٢، ص ٣.

(٤) الكهف: ٦١.

(٥) الكهف: ٦٢.

(٦) النساء: ١١.

(٧) البقرة: ٢٢٩.

(٨) الرحمن: ٤٦.

وقوله تعالى : ﴿جَنَّتَيْنِ﴾^(١) «وَأَضْرَبُ لَهُمُ سَلًّا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لَأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ» فقيل : جنة واحدة بدليل قوله تعالى آخر الآية ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ فأفرد بعد ما ثنى.

وقوله : ﴿كَلَّمَ الْجَنَيْنِ آمَتْ أَكَلَهَا﴾^(٢) فإنه ما ثنى هنا إلا الإشعار بأن لها وجهين، وأنت إذا نظرت عن يمينك ويسارك رأيت فى كلتا الناحيتين ما يملأ عينك قرة، وصدرك مسرة^(٣).

وقوله تعالى : ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٤) وإنما المتخذ إليها عيسى دون مريم، فهو من باب "والنحوم الطوالع"^(٥) قاله أبو الحسن، وحكاه عنه ابن جنى فى كتاب "القد" وعليه حمل ابن جنى وعنده قول امرئ القيس.

قفانبك من ذكرى حبيب ومزول

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ويؤيده قوله بعده :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه^(٦)

كلمع اليديين فى حبى مكل

(١) الكهف : ٣٢.

(٢) الكهف : ٣٢.

(٣) لفرهان، ج ٣، ص ٥.

(٤) المائدة : ١١٦.

(٥) إشارة إلى بيت الفرزدق.

(٦) ديوانه، ص ٢٤.

وقول الفرزدق :

عشية سال المريدان كلاهما

سحابة موت بالسيوف الصوارم^(١)

وإنما هو مربد البصرة فقط.

وقول جرير :

لما مررت بالديرين أرقنى صوت الدجاج وقرع بالنواقيس

قالوا : أراد "دير الوليد" موضع بالشام" قال ياقوت فتناه باعتبار ما

حوله.

يقول الفراء فى سبب الخطاب بصيغة المتنى عند الشعراء :
«وترى أصل ذلك أن الرقعة أدنى ما تكون ثلاثة نفر، فجرى كلام الواحد على صاحبيه، ألا ترى أن الشعراء أكثر شىء قبيلاً» يا صاحبي ويا خليلي^(٢)، ويؤكد "الرضى" وجهة نظر الفراء فى تعليل سبب عدول الشعراء فى التعبير عن المفرد بصيغة المتنى فيقول : «لأن أكثر الرفقاء ثلاثة، فكل منهم يخاطب صاحبيه فى الأغلب، فيخاطب الواحد أيضاً مخاطبة الاثنين لتمرر المنتهم عليه»^(٣).

هذا بالنظر إلى قول الشعراء، أما آيات القرآن الكريم التى عبر فيها بلفظ المتنى، فالبلاغيون يلتمسون لها علة أخرى، وهى إرادة التوكيد، فيكون ذلك إما بمنزلة تقسيم الشىء الواحد إلى شينين ثم الحديث عنهما، وفى ذلك من التأكيد ما لا نجده إذا عبرنا عنه بلفظ المفرد.

^(١) ديوانه، ص ٨٦١.

^(٢) الصاحبي لابن قس، ١٨٦.

^(٣) شرح الكافية، ج ٢، ص ١٧٧.

وإما أن يكون بمثابة تكرار الفعل، ثم امتزاج الفعلين وصار
حضور أحدهما حضور للآخر، فقوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِدٍ﴾ بمثابة تكرار الفعل وكأنه قال : "ألق ألق" فكان تنشئة الفاعل تقوم
مقام تكرار الفعل، ويمثل ذلك ما جاء فى قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ
أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ أى أرجعنى، أرجعنى، والتكرار يعطى
المعنى قوة وتأكيداً، ويزيده فضلاً وتأثيراً^(١).
وهذا هو السر البلاغى فى العدول عن التعبير بالمفرد إلى المثنى.

(١) فن البلاغة، ص ٣٠٤ د/ عبد القادر حسين.

الفصل الخامس

أسرار الجمع فيما ظاهره الأفراد

أسرار الجمع فيما ظاهره الأفراد

وهو لون من ألوان التّغليب المراد به، أن يأتى التعبير بصيغة الجمع وظاهر السياق التعبير بالأفراد.

وقد عرف العرب هذا الأسلوب وكان واضحاً فى نثرهم وشعرهم، فمن ذلك قولهم : شابت مفارقة وليس له إلا مفرق واحد.

وقول امرئ القيس فى وصف الفرس :

تزل الغلام الخف عن صهواته

كما زلت الصفاء بالمتنزل

وليس له إلا صهوة واحدة.

ومنه قول الآخر :

ومثلك معجبة بالشباب سال العبير بأجياها

وليس له إلا جيد واحد^(١).

وهذا اللون ظهر فى أساليب القرآن الكريم، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْمُونَ﴾^(٢).

ورد التعبير بصيغة الجمع فى "قتلتم" والمعنى على الأفراد.

وقد علق على الآية "صاحب روح المعانى" إذ يقول : القاتل واحد،

ونسبة القتل إلى المخاطبين لوجوده فيهم على طريقة العرب فى نسبة

^(١) عقود الجمال للسيوطى، ص ١١٤ - ١١٦.

^(٢) البقرة : ٧٢.

الأشياء إلى القبيلة إذا وجدت من بعضها ما يذم به أو يمدح، وقال : بعضهم، إنه لا يحسن إسناد فعل أو قول صدر عن البعض إلى الكل إلا إذا صدر عنه بمظاهرتهم أو رضا منهم غير مسلم، وأشار إلى السر في ذلك بقوله : ونكتة إسناذه إلى الكل الإشارة إلى أن الكل بحيث لا يبعد صدور القتل منهم لمزيد حرصهم وكثرة طمعهم وعظم جرأتهم.

فهم كأصابع الكفين طبعاً وكل منهم طمع جنسور

وقيل إن القاتل جمع وهم ورثة المقتول، وقد روي أنهم اجتمعوا على قتله، ولهذا نسب القتل إلى الجميع^(١).

وهو ما أشار إليه أبو حيان من الاحتمالين في الآية. ومن أمثلة هذا الأسلوب ما جاء في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٢).

ورد التعبير بالجمع في كلمة "الناس" والمعنى على الأفراد، وقد وضح "فخر الدين الرازي" في التفسير الكبير^(٣) المقصود من هذه الآية فقال : القاتل هو نعيم بن مسعود وجاز إطلاق لفظ الناس على الإنسان الواحد، لأنه إذا قال الواحد قولاً وله أتباع يقولون مثل قوله أو يرضون بقوله، حسن حينئذ إضافة ذلك الفعل إلى الكل، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِنَفْسٍ أَتَيْنَاكُمْ فِيهَا﴾^(٤) ﴿وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَى إِنَّا نُرِيكَ خَلْقَ الْجِبْرِ﴾^(٥)

^(١) روح المعاني للكرسي، ج ١، ص ٢٦٥، ونظر البحر المحيط لأبي حيان، ج ١، ص ٢٥٩.

^(٢) آل عمران : ١٧٣.

^(٣) التفسير الكبير، ج ٥، ص ٩٩.

^(٤) البقرة : ٧٢.

^(٥) البقرة : ٥٥.

وهم لم يفعلوا ذلك. وإنما فعله أسلافهم، إلا أنه أضيف إليهم لمنابتهم له على نصيبهم في تلك الأفعال. فكذا هنا يجوز أن يضاف القول إلى الجماعة الراضين بقول ذلك الواحد^(١). فالجمع هنا إنما جاء تعبيراً عن مقتضى الحال والمقام.

ونظير الآية السابقة قوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢).

ورد التعبير بالجمع في الناس والمعنى على الأفراد كما جاء في كتب اللغة والتفسير.

وفخر الدين الرازى^(٣) : بعد هذه الآية من التغليب على اعتبار رأى الأكثرية في أن المراد من الناس هو سيدنا محمد ﷺ، ويقول : وهو قول ابن عباس والأكثرين، وإنما جاز أن يقع عليه لفظ الجمع وهو واحد، لأنه اجتمع عنده من خصال الخير ما لا يحصل إلا متفرقاً في الجمع العظيم، ومن هنا يقال فلان أمة وحده، أى يقوم مقام أمه، قال تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾^(٤).

ويرى الزمخشري في كشافه أن التعبير في الآية موافقاً للسياق الظاهر، إذ يقول : "بل يحسدون رسول الله والمؤمنين" على إنكار الحسد واستنباحه^(٥).

^(١) التفسير الكبير، ج ٥، ص ٩٩.

^(٢) النساء : ٥٤.

^(٣) تفسير الكبير، ج ٣، ص ٢٣٧.

^(٤) النحل : ١٢٠.

^(٥) الكشاف، ج ١، ص ٥٣٤.

ومن أمثلة هذا الأسلوب ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يَا مُعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾^(١) فقد ورد التعبير بالجمع فى قوله "رسل" وظاهر السياق الإفراد.

يرى الفراء فى معانى القرآن : أن الرسل من الإنس خاصة فكيف قال الإنس والجن ؟ قيل هذا كقوله : «مرج البحرين يلتقيان ثم قال يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان»^(٢).

ورأى الفراء أحد احتمالات الزمخشري فى تعليقه على سر الجمع فى الآية.

فعنده أن بعضهم تعلق بظاهر الآية، ولم يفرق بين مكلفين ومكلفين أن يبعث إليهم رسول من جنسهم، لأنهم به أنس وله ألف، أو أن الرسل من الإنس خاصة، وإنما قيل رسل منكم، لأنه لما جمع الثقلين فى الخطاب صح ذلك وإن كان من أحدهما كقوله تعالى : ﴿ وَكَلَّا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ وعن الكلبي كانت الرسل قبل أن يبعث سيدنا محمد ﷺ - يبعثون إلى الإنس ورسول الله بعث إلى الإنس والجن^(٣).

أما الفخر الرازى فى تفسيره لا يستبعد أن يقال إن الرسل كانوا من الإنس إلا أنه تعالى كان يلقي الداعية فى قلوب قوم من الجن حتى يسمعوا كلام الرسل، ويأتى قومهم من الجن ويخبرونهم بما سمعوه من

^(١) الأنعام : ١٢٠.

^(٢) معانى القرآن للفراء، ج ١، ص ٣٤٤.

^(٣) الكشف، ج ٢، ص ٥١.

الرسول وينذرونهم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ فأولئك الجن كانوا رسل الرسل، فكانوا رسلًا لله تعالى والدليل عليه أنه تعالى سمى رسل عيسى رسل نفسه فقال: "إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ"^(١).

ويعلق أبو حيان بما يخرج الآية من التغليب وإن التعبير فيها وارد على سياق الظاهر من أن من الجن رسلًا إليهم، كما أن من الإنس رسلًا إليهم.

فقال: بعث الله رسولاً واحداً من الجن إليهم اسمه "يوسف" وقيل رسل الجن هم رسل الإنس فهم رسل الله بواسطة إذ هم رسل رسله ويؤيده قوله: ﴿وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ ويروى أن قوماً من الجن استمعوا إلى الأنبياء ثم عادوا إلى قومهم فأخبروهم بما جرى لهم مع الرسل، فيقال لهم رسل الله وإن لم يكونوا رسله حقيقة. وعلى هذين القولين يكون الضمير راجعاً إلى الجن والإنس، ويقول: وقد تعلق قوم بهذا الظاهر فزعموا أن الله تعالى بعث إلى الجن رسلًا منهم ولم يفرقوا بين مكلفين ومكلفين أن يبعث إليهم رسول من جنسهم لأنهم به أنس وآلف^(٢).

وينقل أبو حيان عن آخرين ما يجعل الآية من التغليب وعبارته في ذلك، وقال مجاهد والضحاك الرسل من الإنس دون الجن، ولكن لما كان النداء لهما والتوبيخ معاً جرى الخطاب عليهما على سبيل التجوز الممهود في كلام العرب تغليباً للإنس لشرهم^(٣).

^(١) التفسير الكبير، ج ٤، ص ١٥٢.

^(٢) البحر المحيط، ج ٤، ص ٢٢٢، ونظر أسلوب التغليب د/ صفاء، ص ٩٢ - ٩٣.

^(٣) البحر المحيط، ج ٤، ص ٢٢٢.

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾^(١) إلى قوله : ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَيْرِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾^(٢) قال أبو بكر الصيرفي، فهذا خطاب للنبي ﷺ وحده. إذ لا نبي معه ولا بعده^(٣).

ومثله قوله تعالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٤)، وهذا مما لا شريك فيه، والحكمة في التعبير بصيغة الجمع، أنه لما كانت تصاريف الكسبيته سبحانه وتعالى : تجرى على أيدي خلقه نزلت أفعالهم منزلة قبول القول بمورد الجمع.

وجعل منه ابن فارس قوله تعالى : ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَا يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾^(٥) والرسول كان واحداً بدليل قوله تعالى : ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾^(٦).

وفيه نظر، من جهة أنه يحتمل مخاطبة رئيسهم، فإن العادة جارية لاسيما من الملوك ألا يرسلوا واحداً.

ومنه : ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾^(٧). ورد التعبير بصيغة الجمع في قوله "الملائكة" والمعنى على الإفراد، إذ المراد جبريل من الملائكة.

(١) المؤمنون : ٥١.

(٢) المؤمنون : ٥٤.

(٣) الروحان، ج ٢، ص ٧.

(٤) الفرقان : ٢٢.

(٥) النمل : ٢٥.

(٦) النمل : ٣٧.

(٧) النمل : ٢.

وقد ذكر "الفخر الرازي"^(١) بأنه قد روى عن عطاء عن ابن عباس قال : يريد بالملائكة جبريل وحده.... ويرى احتمالاً آخر فى أن المراد بالروح هنا جبريل عليه السلام والباء فى قوله "بالروح" بمعنى "مع" كقولهم : خرج فلان بثيابه أى مع ثيابه، فيكون المعنى ينزل الملائكة مع الروح وهو جبريل، والأول أقرب، وتقرير هذا الوجه أنه سبحانه ما أنزل على سيدنا محمد جبريل وحده بل فى أكثر الأحوال كان ينزل مع جبريل عليه السلام أقوام من الملائكة، وكان ينزل على رسول الله تارة ملك الجبال، وتارة ملك البحار، وتارة رضوان وتارة غيرهم^(٢) .

ويذكر أبو السعود فى تفسيره أن المراد بالملائكة جبريل عليه السلام ويقول: قال الواحدى : يسمى الواحد بالجمع إذا كان رئيساً أو هو ومن معه من حفظة الوحي بأمر الله تعالى^(٣) .

والحقيقة أن "جبريل" هو المراد بالروح المعبر عنه بالملائكة جميعاً، فقد اضطلع بمهمة إنزال القرآن على سيدنا محمد ﷺ وفيه الهداية والبشارة للمؤمنين. ومنه التصديق لما جاء فى الكتب السماوية، فلا بد أن تكون منزلته عظيمة وشأنه كبيراً بين غيره من الملائكة وهو بهذا المعنى يعدل مجموعة من الملائكة تَوْنُ الْمَلَك، ومن هنا جاء التعبير عنه بالجمع فى "ملائكة".

والأمثلة القرآنية كثيرة ومتعددة، وهدفنا من هذه الدراسة هو محاولة الكشف عن السر البلاغى لهذه الأساليب، وإن كان علماء البلاغة

^(١) تفسير الكبير، ج ٩، ص ٢٨٦.

^(٢) تفسير الكبير، ج ٩، ص ٢٨٧.

^(٣) تفسير أبى السعود، ج ٦، ص ٢٩٨، ونظر أسلوب التظليل د/ صفاء ص ٩٩ - ١٠٠.

قد وقفوا عليها، وأوضحوا غموضها، وبينوا أن التعبير بالجمع مكان المفرد، سببه الحذف لإرادة التحظيم والتقدير في كل موقع حسب المقام والمقتضى.

ويذكر السيوطي في معتركه^(١) لمقابلة الجمع بالجمع تارة تقتضى مقابلة كل فرد من هذا بكل فرد من هذا كقوله تعالى : ﴿وَأَسْتَغْسُوا يَدَيْهِمْ﴾^(٢) أى استغس كل منهم ثوبهم ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾^(٣) أى كل من المخاطبين أمه، ﴿وَصِيَّكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾^(٤) أى كل فى أولاده، ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾^(٥) أى كل واحدة ترضع ولدها.

وتارة يقتضى ثبوت الجمع لكل فرد من أفراد المحكوم عليه نحو ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾^(٦) . وجعل منه الشيخ عز الدين بن عبد السلام ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾^(٧) .

وتارة يحتمل الأمرين، فيحتاج إلى دليل يعين أحدهما. وأما مقابلة الجمع بالمفرد فالغالب ألا يقتضى تعميم المفرد، وقد يقتضيه كما فى قوله

^(١) معرك الأحرار، ج ٣، ص ٤٨٤.

^(٢) نوح : ٧.

^(٣) النساء : ٢٣.

^(٤) النساء : ١١.

^(٥) البقرة : ٢٣٣.

^(٦) النور : ٤.

^(٧) البقرة : ٢٥.

تعالى : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾^(١) . المعنى على كل واحد لكل يوم طعام مسكين ، ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾^(٢) لأنه على كل واحد منهم ذلك .

^(١) البقرة : ١٨٤ .

^(٢) النور : ٤ .

الفصل السادس

أسرار الجمع فيما ظاهرة التثنية

أسرار الجمع فيما ظاهره التثنية

وهذا أسلوب من أساليب التغليب المراد به أن يكون التعبير بصيغة الجمع وسياق الظاهر يقتضى التثنية.

وقد وردت شواهد كثيرة فى آيات القرآن الكريم، نذكر منها على سبيل المثال :

ففى قوله تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾^(١).

فقد ورد التعبير بالجمع فى "أيديهما" وسياق الظاهر التثنية أى : أيديهما.

ويرى الفراء فى معانى القرآن أن السر فى التعبير بالجمع فى هذه الآية والمراد به التثنية وإنما قال أيديهما لأن كل شىء موحد من خلق الإنسان إذا ذكر مضافاً إلى اثنين فصاعداً جمع فقيل : هُشِمَت رُؤُوسُهُمَا ومَلَأَت ظُهُورُهُمَا وبطونُهُمَا^(٢).

أما أبو حيان التوحيدي فيقول نقلاً عن الزمخشري أيديهما أيديهما ونحوه فقد صغت قلوبكما، اكتفى بتثنية المضاف إليه من المضاف، وأريد باليدين اليمينان بدليل قراءة عبد الله : والسارقون والسارقات فاقطعوا. أيمانهم، ثم يقول : وسوى بين أيديهما وقلوبكما وليس بشيئين، لأن يابح صغت قلوبكما بطريقه وضع الجمع موضع التثنية. وهو ما كان اثنين من شيئين كالقلب والأنف والوجه والظهر^(٣).

(١) المائدة : ٢٨.

(٢) معانى القرآن للفراء، ج ١، ص ٢٨٧.

(٣) البحر المحيط لأبى حيان، ج ٣، ص ٤٨٣.

وأما إن كان في كل شيء منها اثنان كاليدين والأذنين والفخذين، فإن وضع الجمع موضع التنثية لا يطرد، وإنما يحفظ ولا يقاس عليه، لأن الذهن إنما يتبادر إذا أطلق الجمع لما دل عليه لفظه، فلو قيل : قطعت أذان الزيدین فظاهره قطع أربعة الأذان، وهو استعمال اللفظ في مدلوله.

وينقل عن "ابن عطية" قوله : جمع الأيدي من حيث كان لكل مسارق يمين واحدة، وهي المعرضة للقطع في السرقة، وللسارق أيد، وللسارقات أيد كأنه قال : اقطعوا أيمان النوعين، فالتثنية للضمير إنما هي للنوعين، وظاهر قوله أيديهما أنه لا يقطع الرجل، فإذا سرق قطعت يده اليمنى، ثم إن سرق قطعت يده اليسرى، ثم إن سرق عزر وحبس وهو مذهب مالك والجمهور^(١).

ومن أمثلة هذا الأسلوب قوله تعالى : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَمٌّ الْقَوْمُ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾^(٢).

فقد ورد التعبير بالجمع في قوله : "لحكمهم" وسياق الظاهر التنثية. يحتج "الفخر الرازي" على من قال : «أقل الجمع اثنان بقوله تعالى : ﴿وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ مع أن المراد داود وسليمان والجواب أن الحكم كما يضاف إلى الحاكم فقد يضاف إلى المحكوم له، فإذا أضيف الحكم إلى المتحاكمين كان المجموع أكثر من الاثنين، وقرئ وكنا لحكمهما شاهدين^(٣).

^(١) البحر المحيط، ج ٣، ص ٤٨٣.

^(٢) الأنبياء : ٧٨.

^(٣) التفسير الكبير، ج ٦، ص ١١٨.

أما أبو حيان^(١) فكان له رأى آخر من أن الضمير فى "لحكمهم" عائد على الحاكمين والمحكوم لهما وعليهما وليس المصدر هنا مضافاً لا إلى الفاعل ولا مفعول ولا هو عامل فى التقدير فلا ينحل بحرف مصدرى والفاعل. بل هو مثل له ذكاء الحكمة وذهن الأذكىاء، وكأن المعنى : وكنا للحكم الذى صدر فى هذه القضية شاهدين، فالمصدر هنا لا يراد به الكلام، بل يراد به وجود الحقيقة^(٢).

ويرى أبو السعود : أن المقصود الحاكمين والمتحاكمين كليهما، فالإضافة لمجرد الاختصاص المنتظم لاختصاص القيام واختصاص الوقوع.

وهذا الرأى هو ما نميل إليه.

ومن أسرار التعبير بالجمع وظاهرة التنثية، نجد الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ثُمَّ أَسْوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٣) فقد ورد التعبير بالجمع فى "طائعين" وظاهر السياق التنثية.

يقول الزمخشري معلقاً على هذه الآية الكريمة «هل قيل طائعتين على اللفظ، أو طائعات على المعنى لأنهما سموات وأرضون ؟ قلت لما جعلن مخاطبات ومحبيبات ووصفن بالطوع والكراهة قيل طائعتين فى مواضع طائعات نحو قوله : "ساجدين"^(٤).

^(١) البحر المحيط، ج ٦، ص ٢٣١.

^(٢) البحر المحيط، ج ٦، ص ٢٣١.

^(٣) فصلت : ١١.

^(٤) لكشاف، ج ٣، ص ٤٤٦.

وينقل عنه الفخر الرازى مفسراً قوله : «فالغرض المعنى كما يقول الزمخشري يعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتنالهما أنه أراد تكوينهما فلم يمتنع عليه، ووجدنا كما أرادهما وجاءتا فى ذلك كالمأمور المطيع، إذا ورد عليه فعل الأمر نبه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما انتبها شئتما ذلك أو أبيتما، فقالتا أتينا على الطوع لا على الكره^(١) .

والغرض تصوير أثر قدرته فى المقدورات من غير أن يحقق شيئاً من الخطاب والجواب.

والذى أراه أن التعبير بجمع المذكر الذى لا يكون إلا للعقلاء أو وصف للعقلاء فى قوله "طائعين" جاء مناسباً للسياق.

ويمكن أن نجمل القول من أن بلاغة هذا التعبير يرجع إلى قصد المبالغة بجعل كل واحد من الشئيين عدة أشياء أو إرادة المبالغة فى واحد من الاثنين المذكورين يجعله لكبر شأنه وجلالة قدره كأنه أشياء فتسوغ لنفسك جمع المثنى، وبذلك نعود لنفهم العلة البلاغية فى وضع الجمع موضع المفرد وهى المبالغة فى التعظيم والتقدير^(٢)

(١) البحر المحيط، ج ٧، ص ٤٨٦، وانظر الضمير الكبير، ج ٧، ص ٥٧٣.

(٢) عقود الجمان، ج ١، ص ١١٥، وانظر فن البلاغة، ص ٣١٠ د/ عبد القادر حسين.

الفصل السابع

أسرار التنقية فيما ظاهره والجمع

أسرار التنثية فيما ظاهره الجمع

هذا اللون من ألوان التغليب ذكره ابن جنى ووقف على منزه البلاغى، واستعان فى ذكره بما نقله عن الخليل، وهذا اللون لم نزل له مثلاً إلا من القرآن عند الخليل أو سبيويه أو أبى عبيدة أو القراء، زعم أن القرآن ذكر بعض هذه الاستعمالات (١) :

كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ (٢) أى كرات فهو جمع واحد

لأن البصر لا يحصر إلا بالجمع، وجعل منه بعضهم ﴿الطَّلَافُ مَرَّتَانِ﴾ (٣) فقد ورد التعبير فى الآية بالتنثية فى "كرتين" وساق الظاهر الجمع أى كرات.

ويعلق الرازى (٤) على هذه الآية بقوله : إن التنثية فيها أمر بتكرير البصر فى خلق الرحمن على سبيل التصفح والتتبع هل يجد فيه عيباً وخلاً؟

بمعنى إذا كررت نظرك لم يرجع إليك بصرك بما طلبته من وجدان الخلل والعيب، بل يرجع إليك خاملاً أو مبعداً من قولك : خست الكلب، إذا باعدته فعند المبرد "الخاسى" المبعد المصغر، وعند ابن عباس "الخاسى" هو الذى لم ير ما يهوى، وأما الحسير فهو الكليل، وقد ذكر الواحد هنا احتمالين :

(١) فى البلاغة، ص ٣٠٤ / عبد القادر حسين.

(٢) لذلك : ٤.

(٣) البقرة : ٢٢٩.

(٤) الضم الكبير، ج ٨، ص ١٧٣.

الأول : أن يكون الحسير منعولاً من حسر العين بُعد المرئ.
الثاني : ما قاله الفراء أن يكون فاعلاً من الحسور الذى هو الإعياء،
والمعنى أنه وإن كرر النظر وأعاد فإنه لا يجد عينا ولا فتورا،
بل البصر يرجع خاسئا مع الإعياء والكلال.

فالمراد يوضع المثنى موضع الجمع أن يتكرر الشيء مرة بعد مرة
وفى ذلك من التأكيد ما لا نجده فى التعبير بالجمع دفعة واحدة، ويبين ابن
جنى هذا المغزى مستعينا فى ذلك بتفسير الخليل فيقول فى قوله تعالى :
﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾^(١).

لفظها لفظ التثنية ومعناها الجماعة، أى أن كل اثنين فصاعداً من
المسلمين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، ألا ترى أن هذا حكم عام فى الجماعة
وليس يختص به منهم اثنان مقصودان، ففيه - إذا شئنا - أحدهما لفظ
التثنية يراد به الجماعة، والآخر لفظ الإضافة لمعنى الجنس وكلاهما قد
جاء منه قولهم لبيك وسعديك، فليس المراد هنا إجابتين اثنتين، ولا إسعادين
اثنتين، بل معناه كلما كنت فى أمر فدعوتنى له أجبتك إليه وساعدتك عليه.
وكذلك قوله تعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾^(٢) ونعم الله أكثر من أن
تحصى^(٣)، فوضع المثنى موضع الجمع قد التفت إلى سره البلاغى ابن
جنى، وإن كان قد استعان فى تفسيره لبيان هذا السر بما ذكره الخليل بن
أحمد.

(١) المعجمات : ١٠ .

(٢) المائدة : ٦٤ .

(٣) المحاسب، ج ٢، ص ٧٧٩، وانظر فى البلاغة.

ومن أمثلة هذا اللون ما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفِ
إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ* إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَهَنِي
بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾^(١).

فقد ورد التعبير بالثنائية فى قوله "خصمان"، وسياق الظاهر الجمع
فالآية من التغليب.

وقد ذهب الفراء فى قوله : وربما ذهبت العرب بالاثنتين إلى
الجمع، كما يذهب بالواحد إلى الجمع، ألا أنك تخاطب الرجل فتقول : ما
أحسنتم ولا أجملتم، وأنت تريد بهينه، ويقول للرجل الفتيا يقتى بها نحن
كذا وكذا وهو يريد نفسه^(٢).

والمفسرون لهذه الآية يرون أن سر الثنائية فى التعبير يرجع إلى
ظاهرة لغوية هى : التعبير بالمصدر "خصم" لأن المصدر لا يثنى ولا
يجمع.

أما الزمخشري فيعلق على هذه الآية بقوله : والخصم والخصماء،
وهو يقع على الواحد والجمع كالضيف، قال تعالى : ﴿حَدِيثٌ ضَيْفٍ
إِبْرَاهِيمَ الْمَكْرِيْنِ﴾ لأنه مصدر فى أصله تقول : خصمه خصمًا كما تقول
ضافه ضيفًا، ثم يقول فإن قلت هذا جمع وقوله : خصمان، ثنائية فكيف
استقام ذلك ؟ قلت معنى خصمان : فريقان خصمان والدليل عليه قراءة من

^(١) ص : ٢١ - ٢٢.

^(٢) معانى القرآن للفراء، ج ٢، ص ٣٩١.

قرأ : خصم... ان بغى بعضهم على بعض ونحو قوله تعالى : ﴿هَٰذَا نِ
خِمٌ مَّانٍ اٰخَصَمُوْا فِي رِيْهِمْ﴾^(١) فإن قلت : فماذا تصنع بقوله : "إن هذا أخى
له" وهو دليل على اثنين ؟ قلت هذا قول البعض المراد بقوله : "بغى
بعضنا على بعض" فإن قلت : فإذا كان للتحاكم من اثنين كيف سماهم
جميعاً خصماً فى قوله : نبأ الخصم وخصمان ؟ قلت : لما كان صاحب كل
واحد من المتحاكمين فى صورة الخصم صحت التسمية^(٢) .

أما صاحب البحر المحيط فله رأى فى تقليل التعبير بالثنائية فى
هذه الآية من أن المصدر لا يثنى ولا يجمع، يقول : فالخبر أصله مصدر
فلذلك يصلح للمفرد والمذكر وفروعهما وهنا جاء الجمع . ولذلك قال : إذا
تسوروا إذ دخلوا... كما قال الشاعر :

وخصم يعدون الدخول كأنهم

قروم غيارى كل أزهر مصعب

ويكشف عن تعليله للثنائية بقوله : والظاهر أنهم كانوا جماعة،
فلذلك أتى بضمير الجمع فإن كان المتحاكمان اثنين فيكون قد جاء معهم
غيرهم على جهة المعاوضة أو المؤاتسة، ولا خلاف أنهم كانوا ملائكة،
كذا قال بعضهم... ويقول : وقيل معنى خصمان فريقان فيكون تسوروا،
ودخلوا عائد على الخصم الذى هو جمع الفريقين، ويدل على هذا أن
"خصمان" بمعنى فريقان فى قراءة من قرأ، بغى بعضهم على بعض".

^(١) المجلد : ١٩ .

^(٢) للكشاف، ج ٢، ص ٣٦٨ .

ويؤيد فخر الدين الرازى وجهة نظر القائل بأن أقل الجمع اثنان،
وعبارته فى ذلك : أقل الجمع اثنان عند بعض الناس، وهؤلاء تمسكوا
بهذه الآية لأنه تعالى ذكر صيغة الجمع فى هذه الآيات فى أربعة مواضع
أحدها، قوله تعالى : ﴿إِذْ تَسُوْرُوا الْحَرَابَ﴾ وثانيتهما قوله تعالى
﴿إِذْ دَخَلُوا﴾ وثالثتهما قوله ﴿مِنْهُمْ﴾ ورابعها قوله : ﴿قَالُوا﴾.

فهذه النقاط الأربع كلها صيغ الجمع، وهم كانوا اثنين بدليل أنهم
قالوا خصمان، فهذه الآية تدل على أن أقل الجمع اثنان، ثم يقول :
والجواب لا يمنع أن يكون كل واحد من الخصمين جمعا كثيرين لأننا بينا
أن الخصم إذا جعل اسما فإنه لا يثنى ولا يجمع ^(١).

ومثال ذلك ما جاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا
بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ^(٢).

فقد ورد التعبير فى الآية الكريمة بصيغة التثنية فى "أخويكم"
وظاهر السياق الجمع.

أما ابن جنى فيذكر بجانب التغليب فيها لفظ الإضافة لمعنى الجنس
وعبارته فى ذلك ألا ترى أن هذا حكم عام فى الجماعة، وليس يختص به
منهم اثنان مقصودان ؟ ففيه إذا شيان : أحدهما : لفظ التثنية يريد به
الجماعة، والآخر : لفظ الإضافة لمعنى الجنس وكلاهما قد جاء منه قولهم

^(١) انفسد الكبير، ج ٧، ص ١٨٢.

^(٢) المحررات : ١٠.

"بيك وسعديك" فليس المراد منه إجابتي ثنتين ولا إسماعدين اثنتين بل معناه: كلما كنت في أمر فدعوتني له أجبتك إليه وساعدتك عليه^(١).

وشهاب الدين الخفاجي يرى أن الآية من التغليب معللاً أنه خص الاثنين بالذكر لأنهما أقل من يقع بينهما الشقاق. ويرى احتمالاً آخر في أن المراد بالأخوين "الأوس والخزرج" وقد سمي كل منهما أخاً لاجتماعهم في الحد الأعلى، ويؤيده بقراءة "أخوتكم وأخواتكم"^(٢) ويتناول "الفخر الرازي" هذه الآية، فكشف عن السر في التثنية بوجهة نظر دقيقة.

وأبان لما قال "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا" كاف لظأن أن يظن أو لمقوهم أو يتوهم أن ذلك عند اختلاف قوم، أما إذا كان الاقتتال بين اثنين فلا تعم المفسدة.

فلا يؤمر بالإصلاح، وكذلك الأمر بالإصلاح هناك عند الاقتتال، وأما إذا كان دون الاقتتال كالشتائم والتسافه، فلا يجب الإصلاح فقال بين إخوانكم وإن لم تكن الفتنة عامة، وإن لم يكن الأمر عظيماً كالقتال، بل لو كان بين رجلين من المسلمين أو في اختلاف فاسعوا في الإصلاح^(٣).

وعند الزمخشري أن التعبير بالاثنتين في الآية لأن أقل من يقع الشقاق يهـم اثنان، فإذا لزمّت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم، لأن الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين^(٤).

وهذا اللون من التغليب أمثلته في القرآن الكريم محدودة، بخلاف ما جاء في الألوان الأخرى السابقة واللاحقة.

(١) المحصب لابن جني، ج ٢، ص ٣٧٩.

(٢) حاشية شهاب على البيهقي، ج ٨، ص ٧٩.

(٣) التفسير الكبير، ج ٧، ص ٥٧٤.

(٤) الكشاف، ج ٣، ص ٥٦٤.

الفصل الثامن

تغاييب المتكلم على المخاطب
والمخاطب على الغائب

تغليب المتكلم على المخاطب والمخاطب على الغائب

يتناول الزركشى^(١) في برهانه هذا القسم من أقسام التغليب ويذكر شواهد قرآنية وعربية نعرض منها ما جاء عنده.

فمثلاً يقال : أنا وزيد فعلنا، وأنت وزيد تفعلان، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنتُمْ قَوْمٌ تُجَاهِلُونَ﴾^(٢) بقاء الخطاب غلب جانب "أنتم" على جانب "قوم" والقياس يجرى بالياء، لأنه وصف القوم، وقوم اسم غيبة، ولكن حسن آخر الخطاب، وصفاً لـ "قوم" لوقوعه خبراً عن ضمير المخاطبين، قاله ابن الشجري.

ولو قيل : إنه حال لـ ﴿فَإِنَّكَ يَوْمَئِذٍ خَاطِبٌ﴾^(٣) لأن في الضمير الخطاب معنى الإشارة لملازمته لها، أو لمعناها لكان متجهاً وإن لم تساعد الصناعة، لكن يبعده أن المراد وصفهم بجهل مستمر، لا مخصوص بحال الخطاب ولم يقل "جاهلون" إذاناً بأنهم يتجددون عند كل مصيبة لطلب آيات جهلهم.

وقال أبو البركات بن الأنباري : ولو قيل : إنما قال : "تجاهلون" بالناء - لأن قوم هو "أنتم" في المعنى فذلك قال : "تجاهلون" حملاً على المعنى - لكان حسناً، ونظيره من رجز لعل بن أبي طالب ك أنا الذي سميتي أمي حيدرة.

(١) زركشى، ج ٢، ص ٢٠٢.

(٢) فصل : ٥٥.

(٣) البجلى : ٥٢.

لوث غاب كرية النظرة أوفيههم بالصاع كيل السندرة

بالياء حملاً على "أنا" لأن "الذي" هو "أنا" فى المعنى، ومنه قوله تعالى : ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾^(١) غلب فيه جانب "أنت" على جانب "من" فأسند إليه الفعل، وكان تقديره "استقيموا" فغلب الخطاب على الغيبة، لأن حرف العطف فصل بين المسند إليهم الفعل، فصار كما ترى^(٢).

قال صاحب الكشف^(٣) تقديره : فاستقم كما أمرت وليستقم كذلك من تاب معك.

وما قلنا أقل تقديرًا من هذا فاختر أيهما شئت وقوله تعالى : ﴿أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ﴾^(٤) فاعاد الضمير بلفظ الخطاب، وإن كان "من تبعك" يقتضى الغيبة، تغليبا للمخاطب، وجعل الغائب تبعًا له كما كان تبعًا له فى المعصية والعقوبة، فحسن أن يجعل تبعًا له فى اللفظ وهو من محاسن ارتباط اللفظ بالمعنى. وكقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٥).

فإن الخطاب فى "لعلكم" متعلق بقوله "خلقكم" لا بقوله "اعبدوا"

^(١) هود : ١١٢.

^(٢) لوهان، ج ٣، ص ٢٠٣، ٢٠٤.

^(٣) الكشف، ج ٢، ص ٢٨٠، ٢٨١.

^(٤) الإسراء : ٦٣.

^(٥) البقرة : ٢١.

حتى يختص بالناس المخاطبين، إذ لا معنى لقوله "اعبدوا لعلكم تتقون"
ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١) فيمن قرأ بالتاء، ويجوز
أن يكون المراد بـ "ما تعملون" الخلق كلهم، والمخاطب النبي وكل
سامع أبداً، فيكون تغليباً، ولا يجوز أن يعتبر خطاب من سواه بدونه من
غير اعتبار التغليب، لامتناع أن يخاطب في كلام واحد اثنان أو أكثر من
غير عطف أو تنبيه أو جمع^(٢).

^(١) هود: ١٢٣.

^(٢) المصنف، ج ٢، ص ٣٠٤.

تغليب العاقل على غيره

بأن يتقدم لفظ يعم من يعقل ومن لا يعقل، فيطلق اللفظ المختص بالعاقل على الجميع، كما نقول : خلق الله الناس والأنعام ورزقهم، فإن لفظ "هم" مختص بالعلاء، ومنه قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾^(١) لما تقدم لفظ الدابة، والمراد بها عموم من يعقل ومن لا يعقل غلب من يعقل، فقال : ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي﴾ فإن قيل هذا صحيح في "فمنهم" لأنه لمن يعقل، وهو راجع إلى الجميع، فلم قال : "من" وهو لا يقع على العام، بل خاص بالعاقل.

قلت : "من" هنا بعض "هم" وهو ضمير من يعقل، فإن قلت : فكيف يقع على بعضه لفظ ما لا يفعل ؟ قلت : من هنا قال أبو عثمان : إنه تغليب من غير عموم لفظ متقدم، فهو بمنزلة من يقول : رأيت ثلاثة : زيذا وعمرًا وحمارًا^(٢).

وقال ابن الصائغ : هم لا تقع إلا على من يعقل، فلما أعاد الضمير على كل دابة غلب من يعقل، فقال : "هم" و"من" بعض هذا الضمير، وهو للعاقل، فإز أن يقول "من" فلما قال : بوقوع التغليب في الضمير، صار ما يقع عليه حكمه حكم العاقلين، فتم ذلك بأن أوقع "من".

وقوله تعالى حاكمًا عن السماء والأرض ﴿قَالَا إِنَّا طَائِعِينَ﴾^(٣) إنما

^(١) البقرة : ٤٥.

^(٢) الرومان، ج ٢، ص ٢٠٥.

^(٣) فصل ١١.

جمعهما جمع السلامة، ولم يقل : "طائعين" ولا "مطاعين" لأنه أراد التثنية بمن فيكم من الخلاق طائعين، فخرجت الحال على لفظ الجمع، وغلب من يعقل من الذكور.

وقال بعض النحويين : لما أخبر عنهما أنهما يقولان كما يقول الآدميون أشبهتا الذكور من بنى آدم، وإنما قال "طائعين" ولم يقل "مطيعين" لأنه من طعنا أى أنقذنا وليس من أطفنا، يقال : طاعت الناقة تطوع طوعاً، إذا انتقادت.

وقوله تعالى : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾^(١) قيل : أوقع "ما" لأنها تقع على أنواع من يعقل، لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل فغلب ما لا يعقل، كان الأمر بالعكس^(٢)، ويناقضه "وكل له قانتون" وقال الزمخشري : جاء بـ "ما" تحقيراً لشأنهم وتصغيراً، قال : "له قانتون" تعظيم.

ورد عليه ابن الصائغ بصحة وقوعها على الله عز وجل قال : وهذا غاية الخطأ.

وقوله فى دعاء الأصنام : ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾^(٣)، وقوله : ﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾^(٤)، وأما قوله : ﴿فَضَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾^(٥)، وقوله : ﴿فِي فَكِّ سَبْحُونَ﴾^(٦)، وقوله : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا

^(١) البقرة : ١١٦.

^(٢) البرهان، ج ٢، ص ٣٠٦.

^(٣) الشعراء : ٧٢.

^(٤) فصلت : ٢١.

^(٥) الشعراء : ٤٠.

^(٦) يس : ٤٠.

هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ^(١)، وقوله تعالى : ﴿هَآءِآبَتِآنِي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ^(٢)، وقوله : ﴿هَآءِآهِيَآ التَّمَلُّ اذْخُلُوا
مَسَآكِنَهُمْ^(٣) لما أخبر عنها بأخبار الأدميين جرى ضميرها على حد من
يعقل، وكذا البوالى.

فإن قيل : فقد غلب غير العاقل على العاقل فى قوله : ﴿وَاللَّهُ
يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ^(٤) فإنه لو غلب العاقل على
غير العاقل لآتى بـ "من".

فالجواب أن هذا الموضع غلب فيه من يعقل، وعبر عن ذلك بـ
"ما" لأنها واقعة على أجناس من يعقل خاصة كهذه الآية.

وقوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ^(٥) ولم يقل :
"ومن فيهن" قيل لأن كلمة "ما" تتناول الأجناس كلها تناولاً عاماً بأصل
الموضع، و"من" لا تتناول غير العقلاء بأصل الموضع، فكان استعمال "ما"
هنا أولى.

يقول الزركشى : وقد يجمع فى لفظ واحد تغليب المخاطب على

(١) الأنبياء : ٦٥.

(٢) يوسف : ٤.

(٣) النمل : ١٨.

(٤) النمل : ٤٩.

(٥) الألف : ١٢٠.

الغائب، والعقلاء على غيرهم، كقوله تعالى : ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ﴾^(١).

أى خلق لكم أيها الناس من جنسكم ذكورا وإناثا، يذروكم، أى ينبئكم ويكثركم أيها الناس والأنعام فى هذا التدبير والجعل، فهو خطاب للجميع، للناس المخاطبين وللأنعام المذكورة بلفظ الغيبة، ففيه تغليب المخاطب على الغائب، وإلا لما صح ذكر الجميع -أعنى الناس والأنعام بطريق الخطاب، لأن الأنعام غيب، و(فيه) تغليب العقلاء على غيرهم، وإلا لما صح خطاب الجمع بلفظ "كم" المختص بالعقلاء ففى لفظ "كم" تغليبان، ولولا التغليب لكان القياس أن يقال : يذروكم وإياها^(٢) ، هكذا قرر كل من السكاكى والزمخشري.

ونزعا فيه، بأن جعل الخطاب شاملاً للأنعام تكلف لا حاجة إليه، لأن الغرض إظهار القدرة وبيان الألفاف فى حق الناس، فالخطاب مختص بهم، والمعنى يكثركم أيها الناس فى التدبير حيث مكنكم من التوالد والتناسل.

^١
وهيا لكم من مصالحكم ما تحتاجون إليه فى ترتيب المعاش وتدبير التوالد، وجعلها أزواجا تبقى ببقائكم، وعلى هذا يكون التقدير : وجعل لكم من الأنعام أزواجا وهذا أنسب بنظم الكلام مما قرروه، وهو جعل الأنعام أنفسها أزواجا.

^(١) قصورى : ١١.

^(٢) البرهان، ج ٣، ص ٢٠٧.

وقوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْيَمَاصِ حَيَاةٌ﴾^(١) لأنه مسوق لإظهار
الاعتقاد والوحدانية، فأسقط السببية، وأثبت في الظرفية، وهذا وجه من
إعجاز قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْيَمَاصِ حَيَاةٌ﴾ لأن الحياة من شأنه الاستناد
إليه سبحانه لا إلى غيره، فاختيرت "قى" على "الباء" لأنه مسوق لبيان
الترغيب والمعنى مفهوم، والقصاص مسوق للتجريد وحسن المشروعية^(٢)

^(١) البقرة : ١٧٩.

^(٢) الزمان، ج ٣، ص ٢٠٨.

تغليب المتصف بالشئ على ما لم يتصف به

ويذكر الزركشي^(١) هذا الباب ويعرض شواهد قرآنية له : كقوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾^(٢) قيل : غلب غير المرتابين على المرتابين، واعترض بقوله تعالى : ﴿وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣) وهذا خطاب للكفار فقط قطعاً، فهم المخاطبون أولاً ذلك، ثم "إن كنتم صادقين" لا يتميز فيها التغليب، ثم هي شاهدة بأن المتكلم معهم يخص الجاحدين بقوله : "إن كنتم صادقين" وإذا لم يكن الخطاب إلا فيهم، فتغليب حال من لم يدخل في الخطاب، لا عهد به في مخاطبات العرب.

^(١) الرومان، ج ٣، ص ٣٠٨.

^(٢) البقرة ٢٣٠.

تغليب الأكثر على الأقل^(١)

يأن ينسب إلى الجميع وصف يختص بالأكثر، كقوله تعالى :
﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ نَعُودَنَّ فِيهَا﴾^(٢) ادخل
شعيب عليه السلام في قوله : "نعودن" بحكم التغليب، إذ لم يكن في ملتهم
أصلاً حتى يعود إليها، ومثله قوله تعالى : ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلِّكُمْ﴾^(٣)
واعترض بأن "عاد" بمعنى "صار" لغة معروفة، واقتدوا :

فإن تكن الأيام أحسن مرة إلى فقد عادت لهن ذنوب

ولا حجة فيه، لجواز أن يكون ضمير "الأيام" فاعل "عادت" وإنما
الشاهد في قول أمية.

تلك المكارم لا قعبان من لبن شبيباً بماء فعاد بعد أبوالا

ويحتمل جواباً ثالث، وهو أن يكون قولهم لشعيب ذلك من تعنتهم
وبهتانهم وادعائهم أن شعيب كان على ملتهم لا كما قال فرعون لموسى،
وقوله : ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾^(٤) كناية عن أتباعه لمجرد فائدتهم،
وأنه ^(٥) إن قال ذلك عن نفسه وأتباعه فقد استثنى، والمعلق بالمشيئة لا
يلزم إمكانه شرعاً، تقديرًا والاعتراف بالقدرة والرجوع لعلمه سبحانه، وأنه

^(١) لرومان، ج ٢، ص ٣٠٩.

^(٢) الأعراف : ٨٨.

^(٣) الأعراف : ٨٩.

^(٤) الأعراف : ٨٩.

علم العبد عصمة نفسه أدباً مع ربه لا شططا^(١).

ويقول الزركشي : ويجوز أن يراد بالعود فى ملتهم مجرد المساكنة والاختلاط، بدليل قوله : ﴿إِذْ نَجَّأْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾^(٢) ونظيره ﴿إِلَىٰ وَمُطَهَّرِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٣) ويكون ذلك إشارة إلى الهجرة عنهم، وترك الإجابة لهم، لا جواب لهم، وفيه بعد.

تغليب الأشهر

كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَهُكُمْ أَجْزَاءً﴾^(٤) أراد المشرق والمغرب، فغلب المشرق، لأنه أشهر الجهتين، قاله ابن الشجرى.

^(١) الوعان، ج ٣، ص ٢١٠.

^(٢) الأعراف : ٨٩.

^(٣) آل عمران : ٥٥.

^(٤) الفرق : ٢٨.

تغليب الموجود على ما لم يوجد

ويذكر الزركشى فى هذا الباب شواهد قرآنية : كقوله تعالى ﴿بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾^(١) قال الزمخشري : فإن المراد المنزل كله، وإنما عبر عنه بلفظ المضى وإن كان به مترقباً، تغليباً للموجود على ما لم يوجد.
وهذا الباب ذكرنا له شواهد كثيرة فى التعبير عن الماضى بالمستقبل وعكسه.

تغليب الإسلام

كقوله تعالى : ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ﴾^(٢) قال الزمخشري^(٣) لأن الدرجات للعلو، والدركات للسفل، فاستعمل الدرجات فى القسمين تغليباً.
تغليب ما وقع بوجه مخصوص على ما وقع بغير هذا الوجه كقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيكُمْ﴾^(٤) ذكر الأيدى لأن أكثر الأعمال تزاوَل بها، فحصل الجمع بالواقع بالأيدى تغليباً أشار إليه الزمخشري فى آخر آل عمران^(٥).

ويشاكله ما أنشده القرنوى فى العامريات لصفية بنت عبد المطلب :

فلا والعماديات غداة جمع بأيديهما إذا سطع الغبار^(٦)

^(١) البقرة : ٤.

^(٢) الأحقاف : ١٩.

^(٣) الكشاف، ج ٤، ص ٢٤١.

^(٤) آل عمران : ١٨٢.

^(٥) الكشاف، ج ١، ص ٣٤٤.

^(٦) تفسير البحر لأبى حيان، ج ٨، ص ٥٠٣.

فائدتان

وفى ختام باب التغليب نخلص بفائدتين ذكرهما الزركشى^(١).

أحدهما : جميع باب التغليب من المجاز، لأن اللفظ لم يستعمل فيما وضع له، ألا ترى أن القائتين موضوع للذكور الموصوفين بهذا الوصف، فإطلاقه على الذكور والإناث على غير ما وضع له، وفس على هذا جميع الأمثلة السابقة.

الثانية : الغالب من التغليب أن يراعى الأشرف كما سبق ولهذا قالوا فى تشيية الأب والأم، أبوان وفى تشيية المشرق والمغرب : المشرقان، لأن الشرق دال على الوجود والغرب دال على العدم، والوجود لا محالة أشرف وكذلك القمران.
قال :

لنا قمرها والنجوم الطوالع

أراد الشمس والقمر، فغلب القمر لأشرف التذكير، وأما قولهم سنة العمرين يريدون أبا بكر وعمر، قال ابن سيدة فى "المحكم" إنما فعلوا ذلك إيثاراً للخفة، أى غلب الأخف على الأثقل، لأن لفظ "عمر" مفرد ولفظ أبى بكر مركب وذكر أبو عبيد فى "غريب الحديث" أن ذلك للشهرة وطول المدة وذكر غيرهما أن المراد به عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وعلى هذا فلا تغليب^(٢).

^(١) الرومان، ج ٢، ص ٢١٢.

^(٢) الرومان، ج ٢، ص ٢١٢.

ويذكر البهاء السبكي^(١) في عروس الأفراح، أن ابن الشجري يقول: ومن زعم أنهم أرادوا بالعمريين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، فليس قوله بشيء، لأنهم نطقوا بالعمريين من قبل أن يعرفوا عمر بن عبد العزيز.

ويستدرك صاحب البرهان على ما قيل، ويؤكد كلامه بأنهم نطقوا بالعمريين قبل أن يعرفوا عمر بن عبد العزيز، فقالوا يوم الجمل لعلى بن أبي طالب : سنة العمريين.

^(١) شرح الطبع، ج ٢، ص ٥٢.

إقامة صيغة مقام أخرى

هى ضمن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر وتحت أنواع كثيرة :

منها : إطلاق المصدر على الفاعل، نحو : ﴿فَرَأَيْنَهُمْ كَذِبًا﴾^(١)

ولهذا أفردته. وعلى المفعول، نحو : ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾^(٢) أى

من معلومه، ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾^(٣) أى مصنوعه ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمِ

كَذِبٍ﴾^(٤) أى مكذوب فيه، لأن الكذب من صفات الأفعال لا الأجسام.

ومنه إطلاق البشرى على المبشر به، والهوى على المهوى والقول

على المقول^(٥).

ومنه إطلاق الفاعل على المصدر، نحو : ﴿لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَذِبَةً﴾^(٦)

أى تكذيب، وإقامة المفعول مقام للمصدر نحو : ﴿بِأَيْكُمُ الْمَقْتُولُ﴾^(٧) أى

القتلة. على أن الباء غير زائدة.

(١) الشعراء : ٧٧.

(٢) البقرة : ٢٥٥.

(٣) النمل : ٨٨.

(٤) يوسف : ١٨.

(٥) للمؤلف ج ١، ص ١٩٢ للسيوطى.

(٦) الواقعة : ٢.

(٧) القلم : ٦.

ومنها : إطلاق فاعل على مفعول، نحو : ﴿مَاءٍ دَافِقٍ﴾^(١) أى مدفوق، وقوله تعالى : ﴿عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أى مرضى عنها، وعليه قول الشاعر :

دع المكارم لا ترحل لبغيبتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
أى المطعوم المكسو.

وقوله تعالى : ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾^(٢) أى مأمونا فيه.

وعكسه نحو : ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾^(٣) أى آتيا. ﴿حِجَابًا مُسْتُورًا﴾^(٤) أى ساترا وقيل : هو على باب، أى مستورا عن العيون لا يحسن به أحد.

ومنها : إطلاق فعيل بمعنى مفعول، نحو : ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾^(٥).

(١) الطارك : ٦.

(٢) هود : ٤٣.

(٣) مريم : ٦١.

(٤) الإسراء : ٤٥.

(٥) الفرقان : ٥٥.

الفصل التاسع

تغليب التذكير على التأنيث

تغليب التذكير على التأنيث

ومن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر يقول ابن جنى^(١) (ت) ٣٩٢ هـ) اعلم أن هذا الشرح غور من العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح، وقد ورد به القرآن الكريم، وفصيح الكلام منثوراً ومنظوماً، كتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث، وتصور معنى الواحد فى الجماعة، والجماعة فى الواحد، وفى حمل الثانى على لفظ قد يكون عليه الأول، أصلاً كان ذلك اللفظ أو فرعاً وغير ذلك.

تذكير المؤنث

فمن تذكير المؤنث قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى السُّمُسُ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾^(٢) أى هذا الشخص أو هذا المرئى ونحوه. وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَمِنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾^(٣) لأن الموعظة والوعظ واحد^(٤).

يقول أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠ هـ)^(٥) فى مجازة العرب تصنع هذا، إذا بدعوا بفعل المؤنث قبله. ويجوز أن يكون التذكير هنا (إنما هو) لأجل فاعل على قوله^(٦) :

^(١) الخصائص، ج ٢، ص ٤١١، ٤١٢.

^(٢) الأنعام : ٧٨.

^(٣) البقرة : ٢٧٥.

^(٤) الخصائص، ج ٢، ص ٤١٢.

^(٥) مجاز القرآن، ج ١، ص ٨٣.

^(٦) أى جبر، كما فى اللسان (صدق) والبيان، ص ٣٩٨، وفى زهر الأظفار، ج ١، ص ٩٣ نسبة لزاحم الثقفى.

نصبين الهوى ثم ارتمين قلوبنا بأعين أعداء وهن صديق
وقوله^(١) :

ليالى لا عفراء منك بعيدة فتتلى ولا عفراء منك قريب
وعليه قول الحطيئة :

ثلاثة أنفس وثلاث ذود^(٢) لقد جار الزمان على عيالي
ذهب بالنفس إلى الإنسان المذكر^(٣).

ونتق مع ما ذهب إليه ابن جنى ودليل ذلك ما جاء فى قوله
تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
رَوْحَهَا﴾^(٤) وتأويل الآية الكريمة على أن النفس للإنسان المذكر،
والمقصود به آدم عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾^(٥) غلب المذكر، لأن الواو
جامعة، لأن لفظ الفعل مقتضى، ولو أردت العطف امتنع. وقوله :
﴿وَكُنْتُمْ مِنَ الْفَائِتِنِ﴾^(٦).

^(١) عروة بن حزام.

^(٢) الذود من الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة. ويعنى ثلاثة الأنفس نفسه وزوجه وابنته وليكة، وبالذود
ثلاثاً من الثرى كان يقوم بها على عياله فقد إجلدها، انظر الكتاب، ج ٢، ص ١٧٥، والجزالة،

ج ٣، ص ٢٠١.

^(٣) الخصائص، ج ٢، ص ٤١٢.

^(٤) النساء : ١.

^(٥) القيامة : ٩.

^(٦) التحريم : ١٢.

وقوله : ﴿إِلَّا امْرَأَتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾^(١) والأصل (من القانتات والغابرات) فعدت الأنثى من المذكر بحكم التغليب.
ويعقب الزركشي^(٢) على ذلك بقوله :

هكذا قالوا : وهو عجيب، فإن العرب تقول : نحن من بنى فلان، لا تريد إلا مواليتهم، والتصويب لطريقتهم، وفي الحديث الصحيح في الأشعرين : "هم منى وأنا منهم" فقله سبحانه : "من القانتين" ولم يقل : "من القانتان" إيداناً بأن وضعها في العباد جدّاً واجتهاداً، وعلماً وتبصراً ورفعة من الله لدرجاتها في أوصاف الرجال القانتين وطريقتهم. ونظيره، ولكن بالعكس قول عقبة بن أبي معيط لأمية بن خلف لما أجمع القعود عن وقعة بدر، لأنه كان شيخاً فجاء بمجرة، فقال : يا أبا علي استجر، فإنما أنت من النساء، فقال : قبحك الله وقبح ما جئت به، ثم تجهز.

ونازع بعضهم في ذلك من وجه آخر، فقال : يحتمل أى يكون "من" للتبعض بل لابتداء الغاية، أى كانت ناشئة من القوم القانتين، لأنها من أعقاب، هارون أخى موسى عليه السلام.

ويسوق ابن جنى^(٣) فى خصائمه شواهد أخرى من تذكير :

المؤنث، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾^(٤).

إذا جعلت فى (مفتحة) ضميراً، وجعلت (الأبواب) بدلاً من ذلك الضمير، ولم يكن تقديره : الأبواب منها على أن تخلص (مفتحة) من

^(١) الأعراف : ٨٣.

^(٢) الرومان فى علوم القرآن، ج ٣، ص ٢٠٢.

^(٣) الخصائص، ج ٢، ص ١١٣، ١١٤.

^(٤) ص ٥٠٠.

الضمير. نعم إذا كان فى (مفتحة) ضمير (الأبواب) بدل منه فلا بد أيضاً من أن يكون تقديره (مفتحة لهم) الأبواب منها. وليس (منها) وفى (مفتحة) ضمير مثلها إذا أخليتها من ضمير، وذلك أنها إذا خلت (مفتحة) من ضمير فالضمير فى (منها) عائد الحال إذا كانت مشتقة كقولك : مررت بزيد واقفاً الغلام معه، وإذا كان فى (مفتحة) ضمير فإن الضمير فى (منها) هو الضمير الذى يرد به المبدل عائداً على المبدل منه، كقولك : ضربت زيدا رأسه، أو الرأس منه، وكلمت قومك نصفهم أو النصف منهم وضرب زيد الظهر والبطن أى الظهر منه والبطن منه، فاعرف ذلك فرقاً بين الموضعين.

ومن تذكير المؤنث قوله :

إن امرأ غره منكى واحدة بعدى وبعدك فى الدنيا لغرور
وبعده :

أنسيت عهدى ولم تعنى بموتى تبها لفعلك والمنقود مهجور
لما فصل بين الفعل وفاعله حذف علامة التأنيث، وإن كان تأنيثه حقه^(١).

ويقول ابن جنى : وتذكير المؤنث واسع جداً لأنه رد فرع إلى أصل، لكن تأنيث المذكر أذهب فى التناكر والإعراب وسنذكره. كقوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بُيُوتٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾^(٢) أى بيان ودليل وبرهان، وقوله :

^(١) الخصائص، ج ٢، ص ٤١٤.

^(٢) الأعراف ٨٥

﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾^(١) يقول الزركشي^(٢):

وإنما يترك التانيث كما يترك في صفات المذكر، لا كما في قولهم:
امرأة معطار، لأن السماء بمعنى المطر، مذكر.
قال معاوية بن مالك بن جعفر^(٣) :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غشابة

ويجمع على اسمية وسمى، قال العجاج :

نلفه الأرواح والسمى^(٤)

وقوله : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾^(٥) إلى ﴿فَارَزُّوهُمْ مِنْهُ﴾^(٦) ذكر

الضمير، لأنه ذهب بالقسمة إلى المقسوم^(٧). وقوله : ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ
لَعِبْرَةٌ نُصِيبُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾^(٨).

ذهب بالأنعام إلى معنى النعم، أو حملة على معنى الجمع^(٩).

^(١) الأنعام : ٦.

^(٢) البرهان، ج ٣، ص ٣٥٩.

^(٣) انظر المفصليات، ص ٣٥٩، وليت من شراهد الطخيس، ونسبه بعض شراحه إلى حمير، وليس له.

^(٤) الفسان، ج ١٩، ص ١٢٣ ونسبه إلى رؤبة.

^(٥) أنشاء : ٨.

^(٦) أنشاء : ٨.

^(٧) البرهان، ج ٣، ص ٣٥٩.

^(٨) النحل : ٦٦.

^(٩) البرهان، ج ٣، ص ٣٦٠.

وقوله تعالى : ﴿لَئِنْ رَحِمَ اللَّهُ قَرِيبًا مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

ولم يقل : "قريبة" قال الجوهري : ذكرت على معنى الإحسان، وذكر الغراء أن العرب تفرق بين النسب، والقرب من المكان، فيقولون هذه قريبتى من النسب وقريبتى من المكان، فعلوا ذلك فرقا بين قرب النسب والمكان. قال الزجاج: وهذا غلط، لأن كل ما قرب من مكان ونسب، فهو جار على ما يقتضيه من التذكير والتأنيث، يريد أنك إذا أردت القرب من المكان، قلت : زيد قريب من عمرو، وهذا قريبة من العباس، فكذا فى النسب. وقال أبو عبيدة^(٢) : ذكر قريب للتذكير المكان، أى مكانا قريبا، ورده ابن الشجرى بأنه لو صح لنصب "قريب" على الظرف. وقال الأخفش : المراد بالرحمة هنا المطر، لأنه قد تقدم ما يقتضيه، فحمل المذكر عليه.

وقال الزجاج : لأن الرحمة والغفران بمعنى واحد، وقيل : لأنها والرحم سواء.

ومنه : ﴿وَأَقْرَبَ رُحَمَاءُ﴾^(٣) فحملوا الخبر على المعنى، ويؤيده قوله تعالى : ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾^(٤)، وقيل : الرحمة مصدر، والمصادر كما لا تجمع لا توثق^١، وقيل : قريب على وزن فعيل و"فعيل" يستوى المذكر والمؤنث حقيقا كان أو غير حقيقى، ونظيره^(٥) قوله تعالى : ﴿وَمِمَّنْ رَسِمَ﴾^(٦)

(١) الأعراف : ٥٦.

(٢) مجاز القرآن، ج ١، ص ٢١٦.

(٣) الكهف : ٨١.

(٤) الكهف : ٩٨.

(٥) الرومان، ج ٣، ص ٣٦٠.

(٦) يس : ٧٨.

وقيل : من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه مع الالتفات إلى المحذوف، فكأنه قال : «وإن مكان رحة الله قريب» ثم حذف المكان وأعطى الرحمة إعرابه وتذكيره.

وقيل : من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، أى أن رحمة الله شيء قريب أو لطيف، أو ير أو إحسان^(١) وقيل : من باب إكساب المضاف حكم المضاف إليه، إذا كان صالحاً للحذف والاستغناء عنه بالثاني، والمشهور فى هذا تأنيث المذكر لاضافته إلى مؤنث كقول ذى الرمة :

مشين كما اهتزت رماح تسفـهت

أعاليها من الرياح النواسم

فقال : "سفـهت" والفاعل مذكر، لأنه اكتسب تأنيثاً من الرياح، إذ الاستغناء عنه جائز، وإذا كانت الإضافة على هذا تعطى المضاف تأنيثاً لم يكن له، فلأن تعطيه تذكيراً لم يكن له - كما فى الآية الكريمة - أحق وأولى، لأن التذكير أولى، والرجوع إليه أسهل من الخروج عنه وهذا رأى صحيح لوجود هذا البيت فى باب تأنيث المذكر وقد ذكر فى بابه.

وقيل : من الاستغناء بأحد المذكورين لكون الآخر تبعاً له ومعنى من معانيه.

ومنه فى أحد الوجوه قوله تعالى : ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾^(٢)

فاستغنى عن خبر الأعناق بخبر أصحابها والأصل هنا إلى رحمة الله

(١) قولان، ج ٣، ص ٣٦١.

(٢) الشعراء : ٤.

قريب، وهو قريب من المحسنين فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود، وسوغ ذلك ظهور المعنى^(١).

ونظير هذه الآية الشريفة قوله تعالى : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ

قَرِيبٌ﴾^(٢).

قال البغوى : لم يقل : "قريبة" لأن تأنيثها غير حقيقى، ومجازها الوقت^(٣).

وقال الكسائى : إتيانها قريب.

وقيل فى قوله تعالى : ﴿رِيحٌ صَرْصَرٌ﴾^(٤) ولم يقل "صرصرة" كما

قال : ﴿رِيحٌ صَرْصَرٌ عَاتِيَةٌ﴾^(٥) لأن الصرصر وصف مخصوص بالريح لا يوصف به غيرها، فأشبهه باب "حائض" ونحوه، بخلاف "عاتية" فإن غير الريح من الأسماء المؤنثة يوصف به.

وأما قوله تعالى : ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾^(٦) ففى تذكير "منفطر" خمسة أقوال^(٧) :

أحدها : للقراء، أن السماء تذكر وتؤنث، فجاء "منفطر" على التذكير.

^(١) البرهان، ج ٣، ص ٣٦١.

^(٢) الشورى : ١٧.

^(٣) البرهان، ج ٣، ص ٣٦٢.

^(٤) البقرة : ٦.

^(٥) الزمل : ١٨.

^(٦) البرهان، ج ٣، ص ٣٦٢.

والثانى : لأبى على أنه من باب الجنس الذى بينه وبين واحدہ التاء، مفردة
سماءه، واسم الجنس يذكر ويؤنث، نحو : ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ
مُنْقَعِرٍ﴾^(١).

والثالث : الكسائى، أنه ذكر حملاً على معنى المنقوع.

والرابع : لأبى على أيضاً على معنى النسب، أى ذات انفطار، كقولهم :
امراة ترضع، أى ذات رضاع.

والخامس : للزمخشري، أنه صفة لخبر محذوف مذكر، أى شيء منقطع.

ومال أبو عثمان المازنى بحضرة المتوكل قوماً من النحويين منهم
ابن السكيت، وأبو بكر بن قادم عن قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾^(٢)
كيف جاء بغيرها، ونحن نقول : امراة كريمة، إذا كانت هى الفاعل وليس
بمنزلة القتييل التى هى بمعنى المفعول، فأجاب ابن قادم وخلص فقال له
المتوكل : أخطأت : قل يا بكر - للمازنى، قال : بغى : ليس لـ "فعل" وإنما
هو "فعل" والأصل فيه "بغوى" فلما التقت الواو وباء، وسبقت إحداهما
بالسكون أدمجت الواو فى الباء ففعل : "بغى" كما نقول : امراة صبور،
بغير هاء، لأنها بمعنى "صابرة" فهذا حكم "فعل" إذا عدل عن فاعله، فإن
عدل عن مفعوله جاء بالهاء، كما قال عنتر بن شداد

منها اثنتان وأربعون حلوبة سوطاً كخافية الخراب الأسحم

(١) القمر : ٢٠.

(٢) مرهم : ٢٨.

بمعنى "مطلوبة" حكاة التوحيدى فى "البصائر" ويذكر الزركشى فى برهانه ما قاله البغوى فى قوله تعالى : ﴿مَنْ يُخْسِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(١) ولم يقل "رميمة" لأنه معدول عن فاعله، وكلما كان معدولاً عن جهته ووزنه كان مصروفاً عن فاعله، كقوله : "وما كانت أمك بغياً" أسقط الهاء، لأنها مصروفة عن "بأغية"^(٢) وقال الشرف المرتضى^(٣) : فى قوله تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُ الْوَنُ مُخْلِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(٤).

إن الضمير فى ذلك يعود للرحمة، وإنما لم يقل "ولذلك" لأن ثابته الرحمة غير حقيقى، كقوله تعالى : ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾^(٥) ولم يقل "هذه" على أن قوله : "إلا من رحم" كما يدل على الرحمة يدل على "أن يرحم" ويجوز رجوع الكناية إلى قوله إلا أن يرحم والتذكير فى موضعه. قال : ويجوز أن يكون قوله : "ولذلك خلقهم" كناية عن اجتماعهم على الإيمان، وكونهم فيه أمة واحدة، ولا محالة أنه لهذا خلقهم.

ويطابق هذه الآية قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾^(٦) وقال : فأما قوله : "ولا يزالون مختلفين" فمعناه الاختلاف فى

(١) يوس : ٧٨.

(٢) برهانه، ج ٣، ص ٢٦٢.

(٣) أملى المرتضى، ج ١، ص ٧٠ تصريف.

(٤) هود : ١١٨ - ١١٩.

(٥) كهف : ٩٨.

(٦) الناريات : ٥٦.

الدين والذهاب عن الحق فيه بالهوى والشبهات، وذكر أبو مسلم بن بحر^(١) ، فيه معنى غريبًا، فقال : معناه أن خلف هؤلاء الكفار يخلف سلفهم في الكفر، لأنه سواء قولك : خلف بعضهم بعضًا، وقولك : اختلفوا كما سواء قتل بعضهم بعضًا، وقولهم : اقتتلوا، ومنه قولهم : لا أفعله ما اختلف العصران^(٢) (والجديان) أى جاء كل واحد منهم بعد الآخر.

واختلف فى قوله تعالى: ﴿وَلَنْ لَّكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نُسَيِّكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾^(٣).

فقال الكسائي، أى من بطون ما ذكرنا.

وقال الفراء، ذكر لأنه ذهب إلى المعنى، يعنى معنى النعم، وقيل : الأنعام تذكر وتؤنث.

وقال أبو عبيدة : أراد البعض، أى من بطون أيها كان ذا لبن^(٤).

وأكر أبو حاتم تذكير الأنعام، لكنه أراد معنى النعم^(٥).

^(١) أحد المفسرين على منهب للحرلة ت ٢٧٠ هـ.

^(٢) الرومان، ج ٢، ص ٣٦٤.

^(٣) الفصل ٦٦.

^(٤) مجاز القرآن، ج ١، ص ٣٦٢.

^(٥) الرومان، ج ٢، ص ٣٦٤.

الفصل العاشر

تغليب التأنيث على التذكير

تغليب التأنيث على التذكير

لون من ألوان التغليب في الكلام المراد به أن يأتي التعبير للتأنيث وسياق الظاهر التذكير تغليباً للتأنيث على التذكير.

وقد عرفه العرب في كلامهم، ومن ذلك قولهم "المرويان" في الصفا والمروة، قال ابن دريد :

ثمت طاف وانثنى مستلماً ثمت جاء المروتين وسعى

قال ابن هشام اللخمي في شرحه، المروتان هنا الصفا والمروة تغليباً كالعمرين، والقمرين، فمن قال الظاهر أن يقال المروتين : الصفوان لم يصح لأنه سمع كذلك من العرب، وأما قول علي بن أبي طالب "أشواط بين المروتين إلى الصفا، فليس مما نحن فيه لأن المراد كما في "الروض الأنف" بالمروتين المروة وحدها وثبت باعتبار أجزائها.

ومنها أيضاً ما أضيف من الأبناء والبنات لغير الأناسي من الحيوانات وغيره، فإنه يجمع مذكروه ومؤنثه على بنات، فيقال : في "ابن لبون، وابن آوى، وابن عرس" بنات لبون وبنات آوى وبنات عرس، ولا يجمع على بنين إلا شذوذاً كبنى نعش في بنات نعش، وبنى يرج في بنات يرج، وفرقوا فيه بين المؤنث والمذكر فيما يؤلف كابن مخاض وبنات مخاض، واقتصر على المذكر في غيره كابن عرس لأنه أخف.

ومنها كذلك : أمك : للأب والأم، وفي القاموس هما أمك أي أبوك أي أمك وخالك ومنها باب العطف نحو : تقوم هند وزيد كما في الكشف.

ومنها : الثيبان للرجل والمرأة، بناء على أن الثيب لا يطلق على الرجل كما في القاموس.

وفي "كرة الغواص" وأنت إذا استقرت مواضعه علمت أن ما ذكره أغلبى، ألا تراهم يقولون في قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَتَيْنِ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾^(١) النازل في حق الإنسان أنه شامل للعبيد، فإنه بطريق التغليب لا بدلالة النص أو إشارته، وقال بعض فضلاء السلف هذا خلاف المعهود، لأن المعهود أن يدخل النساء تحت حكم الرجال بالتبعية^(٢).

^(١) النساء : ٢٥.

^(٢) كرة الغواص في أولادهم الغواص، ص ١١١ محمد بن قاسمي وانظر أسلوب التغليب د/ صفاء، ص ١٤٤.

تَأْنِيثُ الْمَذْكُورِ

وأما تأنيث المذكر فكقراءة من قرأ : ﴿لَتَقَطُّهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾^(١)

وكقولهم : ما جاءت حاجتك ، وكقولهم : ذهب بعض أصابعه أنت ذلك لما كان بعض السيارة سيارة في المعنى ، وبعض الأصابع إصبعاً ، ولما كانت (ما) هي الحاجة في المعنى. أنشدوا :

أتهجر بيتاً بالحجاز تلفعت به الخوف والأعداء من كل جانب^(٢)

ذهب بالخوف إلى المخافة.

وقال لييد :

فمضى وقدمها وكانت عادة منه إذا هي عردت إقدامها

إن شئت قلت : أنت الإقدام لما كان في معنى التقدمة.

وإن شئت قلت : ذهب إلى تأنيث العادة، كما ذهب إلى تأنيث

الحاجة في قوله : (ما جاءت حاجتك).

وقال^(٣) :

يا أيها الراكب الزجى مطيته سائل بني أسد ما هذه الموت^(٤)

ذهب إلى تأنيث الاستغاث، وحكى الأصمعي عن أبي عمرو أنه

سمع رجلاً من أهل اليمن يقول : فلان لغوب، جاءته كتابي فاحتقرها !

^(١) يوسف : ١٠ .

^(٢) ورد البيت في اللسان (عوف) وفيه : "أم أنت زهرة في مكان : من كل جانب".

^(٣) هو رويشد بن كثير الطائي ، ونظر الخماسة بشرح الشيرازي ج ١ ، ص ١٦٤ .

^(٤) الخصائص ، ج ٢ ، ص ٤١٦ .

فقلت له : أتعزل : جاءته كتابي : فقال : نعم، أليست بصحيفة، قلت : فما للغريب ؟ قال : الأحق، وهذا في النثر كما ترى، وقد علله.
ويقول الهذلي^(١) :

لو كان في قايي كقار قلامة حبًا لغيرك قد أتاها أرسلى

كسر رسولاً وهو مذكر على أرسل، وهو من تكسير المؤنث كأتان
وأتن، وعناق وأعناق، وعقاب وأعقاب، لما كان الرسول هنا إنما يراد به
المرأة، لأنها في غالب الأمر مما يستخدم في هذا الباب، وكذلك ما جاء
عنهم من جناح وأجنح، قالوا : ذهب في التأنيث إلى الرشاة^(٢).
وعليه قول صر بن أبي ربيعة^(٣) :

فكان مجنى دون من كنت أتقى ثلاث شحوص : كاعبان ومعصر
أنت للشخص، لأنه أراد به المرأة.
وقال الآخر^(٤) :

فإن كلاً من هذه عشر أبطن وأنت برئ من قبائلها العشر
ذهب بالبطن إلى القبيلة، وأبان ذلك بقوله، من قبائلها.
وأما قول الأعشى :

وتشرق بالتقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

^(١) نسيه ابن بري إلى لعل، نظير لسان (رسل) ومبرون للفلحين، ج ٢، ص ٩٩، والمصاحف، ص ٣٤٤.

^(٢) لمصاحف، ج ٢، ص ٤١٦.

^(٣) وهو من قبيلة الطيرة التي لوها : لمن آل نعم أنت فاد نسبح.

^(٤) لمصاحف، ج ٢، ص ٤١٧، ونظر الكتاب، ج ٢، ص ١٧٤، والمعالى للنرا، ج ١، ص ١٢٦.

فإن شئت قلت : أنت، لأنه أراد القنأة، وإن شئت قلت : إن صدر
القنأة قنأة، وعليه قول : ذى الرمة :

مشين كما اهتزت رماح تسفحت أعاليها مر الرياح النواسم
الشاعر يصف النساء، وقوله : تسفحت أعاليها مر الرياح أى
حركتها واستخففتها، والنواسم التى تهب بضعف يصفهن وقول جرير :
لما أتى خير الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع
فقد أنت الفعل وهو للمذكر.

وقول الآخر (١) :

طول الليالى أسرع فى نقضى أكلن بعضى وتركن بعضى
فقد أنت الفعل وهو للمذكر، أسرع وهو لطول الليالى ويجوز أن
يكون أنت الفعل لأجل إضافة طول إلى الليالى فاكتسبت التانيث.

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا إِنَّ نَكِّ مِمَّا لَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ (٢)

أنت الفعل وهو للمذكر فك مِمَّا لَ مِمَّا لَ للفاعل ويجوز أيضا أن يكون
اكتسب التانيث لأجل إضافة مِمَّا لَ إلى حبة.

يقول الفراء فى معانى القرآن (٣) : فلن قلت : إن الممَّا لَ ذكر
فكيف قال : (تكن) ؟ قلت : لأن الممَّا لَ أضيف إلى الحبة وفيها المعنى،
كأنه قال : إنها إن نك حبة، وعليه قول الشاعر :

(١) أى المساجد وقيل الأغلب المحلى. لقصص، ج ٢، ص ٤١٨، ونظير الكتاب، ج ١، ص ٢٦،

وشاهد للفنى للسيوطى، ص ٢٩٨، والخبز، ج ٢، ص ٨٠٢.

(٢) لقمان : ١٦.

(٣) معانى القرآن للتراء، ج ١، ص ٨٢.

على قبضة موجوءة ظهر كفه فلا الموء مستحى ولا هو طاعم
لأنه ذهب إلى الكف^(١) .
وقوله^(٢) :

أبا عرو لا تبعد فكل ابن حرة استدعوه داعى موته فيجيب
فأنت فعل الداعى وهو ذكر ، لأنه ذهب إلى المونة .
وقال الآخر^(٣) :

قد صرح السير عن كتمان^(٤) وابتذلت

وقع المحاجن بالمهرية الذقن

فأنت فعل الوقع "ابتذلت" وهو مذكر ؛ لأنه ذهب إلى المحاجن ، أى
اكتسب التأنيث لأجل الإضافة .

ومنه قوله تعالى : ﴿فَنَادَاهُ الْمَلَكُ هُوَ قَائِمٌ يَصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ
اللَّهُ يَبْسُطُ كَيْدَهُ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٥)
أى بكتاب من الله ، فقد أتت كلمة والمقصود فيها مذكر وهو كتاب .

^(١) معاني القرآن للفراء ج ١ ، ص ١٨٧ .

^(٢) ذكره في الخزانة ج ١ ، ص ٣٧٧ .

^(٣) هو نجم بن أبى بن منبج ، انظر معاني القرآن للفراء ج ١ ، ص ١٨٧ .

^(٤) كتمان اسم موضع وقيل اسم جبل ، وأزمن جمع قنود وهى من الإبل التى تجل فتتها الى الأرض ، وقيل
هى السريعة .

^(٥) آل عمران : ٣٩ .

يقول أبو عبيدة : تقول العرب الرجل أنشدني كلمة كذا وكذا، أى قصيدة فلان وإن طالت.

وقوله تعالى : ﴿وَلَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾^(١).

وقوله تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

أى جماعة.

أما قوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتِلًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَكَمْ يَكُ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣) أى كان إماما مطيعا، ويقال أنت أمة فى هذا الأمر أى يؤتم

بك، وقوله : ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾^(٤) أى بعد قرن، ويقال : بعد أمة، أى

نسيان، نسيت كذا وكذا. ويذكر ابن جنى^(٥) : شواهد أخرى لهذا الأسلوب

فيقول : وأما قول بعضهم : صرعتنى بغيرى، فليس عن ضرورة، لأن

البعير يقع على الجمل والناقة. قال :

لا تشربا لبن البعير وعندنا عرق الزجاجة واكف المعمار^(٦)

والمعنى : أن الشاعر يخاطب نفسه على سبيل التجريد وينهيها

عن شرب لبن البعير، والخمر حاضرة عنده حال عصيرها.

(١) آل عمران : ١٠٤.

(٢) آل عمران : ١١٠.

(٣) فصل : ١٢٠.

(٤) يوسف : ٤٥.

(٥) الخصائص، ج ٢، ص ٤١٨.

(٦) الخصائص، ج ٢، ص ٤١٨.

والشاهد كما نرى أنه خاطب البعير وهو مذكر فى الفعل (لا
تشربا) وإنما فعل ذلك لأن البعير يطلق على الجمل والناقة كقوله تعالى :
﴿الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١) . فأنت "الفردوس" وهو مذكر
حملاً على معنى الجنة. وقوله : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(٢)
فأنت "عشر" حيث جردت من الهاء مع إضافته إلى الأمثال، وواحدها
مذكر، وفيه أوجه :

أحدها : أنت لإضافة الأمثال إلى مؤنث، وهو ضمير الحسنات والمضاف
يكتسب أحكام المضاف إليه، فتكون كقوله : ﴿لَلَّيْلَةُ بَعْضُ

السَّيَّارَةِ﴾^(٣) .

والثانى : هو من باب مراعاة المعنى، لأن الأمثال فى المعنى مؤنثة، لأن
مثل الحسنة حسنة لا محالة، فلما أريد تأكيد الإحسان إلى المطيع،
وأنه لا يضيع شيء من علمه كأن الحسنة المنتظرة واقعة، جعل
التأنيث فى أمثالها منبهة على ذلك الوضع، وإشارة إليه، كما
جعلت الهاء فى قولهم : رابوة وعلامة، تنبيهاً على المعنى المؤنث
المراد فى أنفسهم، وهو الغاية والنهاية، ولذلك أنت المثل هنا
توكيداً لتصوير الحسنة فى نفس المطيع، ليكون ذلك أدعى له إلى
الطاعة، حتى كأنه قال : "قله عشر حسنات أمثالها" حذف وأقيمت

^(١) للوسين : ١١ .

^(٢) الأنعام : ١٦٠ .

^(٣) يوسف : ١٠ .

صفته مقامه، وروعى ذلك المحذوف الذى هو المضاف إليه، كما يراعى المضاف فى نحو قوله : ﴿أَوْ كَلَّمَاتٍ فِيْ بُحْرِ لُّجِّيٍّ﴾^(١) أى "أو كذاى ظلمات" وراعه فى قوله : "يغشاه موج" وهذا الوجه هو الذى عول^(٢) عليه الزمخشري، ولم يذكر سواء وقوله تعالى حكاية عن لقمان : ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّيْ أَرَبْتُ لَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾^(٣) . فأتيت الفعل المسند لـ "مِثْقَال" وهو مذكر، لكن لما أضيف إلى "حبة" اكتسب منه التانيث فساغ تانيث فعله.

وذكر أبو البقاء فى قوله : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾^(٤) أن التانيث فى "ذائقة" باعتبار معنى "كل" لأن معناها التانيث، قال : لأن كل نفس نفوس، ولو ذكر على لفظ "كل" جاز - يعنى أنه لو قيل : "كل نفس ذائق" جاز.

وهو مردود : لأنه يجب اعتبار ما يضاف إليه "كل" إذا كانت نكرة، ولا يجوز أن يعتبر كل.

وقوله تعالى : ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾^(٥) . فإن الظاهر حود الضمير إلى الإبداء، بدليل قوله : ﴿وَأَنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ

(١) لقمر : ٤٠ .

(٢) لقمان فى علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٦٥ .

(٣) لقمان : ١٦ .

(٤) آل عمران : ١٨٥ .

(٥) البقرة : ٢٧١ .

لَكُمْ ﴿ فذكر الضمير العائد على الإخفاء، ولو قصد الصدقات لقال : "فهى"
وإنما أنث هى والذى عاد إليه مذكر، على حذف مضاف، أى وإيدأوها نعم
ما هى، كقوله : "القرية اسألها".

ومنه "سعيرا" وهو مذكر، ثم قال "إذا رأيتم" فجعله على الناف.
وأما قوله : ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَهُنَّ﴾^(١) فقيل : الضمير عائد على الآيات المتقدمة فى اللفظ وقال
البغوى : إنما قال "خلقهن" بالتأنيث، لأنه أجرى على طريق جمع التكبير،
ولم يجر على طريق التغليب للمذكر على المؤنث، لأنه فيما لا يعقل.
وقيل فى قوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^(٢) . إن
المراد آدم فأنثه رذا إلى النفس^(٣) .

وحكى الثعلبى فى تفسيره فى سورة "التقرب" بإسناد إلى المبرد :
مثل عن ألف مسألة، منها : ما الفرق بين قوله تعالى : ﴿جَاءَهَا رِيحٌ
عَاصِفٌ﴾^(٤) وقوله : ﴿وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾^(٥) وقوله تعالى : ﴿أَعْجَازُ
نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾^(٦) و﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْتَبِعٍ﴾^(٧) فقال : كل ما ورد عليك من

(١) فمات : ٢٧.

(٢) قضاء : ١.

(٣) لرهان فى علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٦٧.

(٤) يونس : ٢٢.

(٥) الأنبياء : ٨١.

(٦) الحاقة : ٧.

(٧) القمر : ٦٠.

هذا الباب، فلك أن تردده إلى اللفظ تذكيراً، ولك أن تردده إلى المعنى تأنيثاً، وهذا من قاعة أن اسم الجنس تأنيثه غير حقيقي، فتارة يلحظ معنى الجنس فيذكر، وتارة معنى الجماعة فيؤنث قال تعالى في قصة شعيب : ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾^(١) وفي قصة صالح : ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾^(٢) وقال : ﴿إِنَّ الْبَقَرَ شَابَهُ عَلَيْنَا﴾^(٣). وأبدى السهيلي للحذف والإثبات معنى حسناً فقال : إنما حذفت منه، لأن "الصيحة" فيها بمعنى العذاب والخزى إذا كانت منتظمة بقوله : ﴿وَمِنْ خِزْيٍ يُؤْمِرُ﴾^(٤) أقوى التذكير بخلاف قصة شعيب، فإنه لم يذكر فيها ذلك.

جاء ابن مسعود : ذكروا القرآن، ففهم منه ثعلب أن ما احتمل تأنيثه وتذكيره، كان تذكيره أجود.

ورُدُّ بأنه يمتنع إرادة تذكير غير الحقيقي التأنيث، لكثرة ما في القرآن منه بالتأنيث ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ﴾^(٥) ﴿وَأَلْفَ السَّاقِ بِالسَّاقِ﴾^(٦) ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾^(٧) وإذا امتنع إرادة غير الحقيقة، فالحقيقي أولى^(٨).

^(١) هود : ٩٤.

^(٢) هود : ٦٧.

^(٣) بقرة : ٧٠.

^(٤) هود : ٦٦.

^(٥) بلع : ٧٢.

^(٦) لقطة : ٢٩.

^(٧) إبراهيم : ١١.

^(٨) لوهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٧٠.

قالوا : ولا يستقيم إرادة أن ما احتمل التذكير والتأنيث غلب فيه التذكير، لقوله تعالى : ﴿وَالنَّخْلُ بَاسِقَاتٌ﴾^(١) ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾^(٢) فانت مع جواز التذكير، قال : ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعٍ﴾^(٣) ﴿مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾^(٤) ، قال : فليس المراد كما فهم، بل المراد الموعظة والدعاء، كما قال تعالى : ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾^(٥) إلا أنه حذف الجار والمقصود ذكروا الناس بالقرآن، أي ابعثوهم على حفظه كيلا ينسوه.

وقال الواحدى : إن قول ابن مسعود على ما ذهب إليه ثعلب، والمراد أنه إذا احتمل اللفظ التذكير والتأنيث ولم يحتج فى التذكير إلى مخالفة المصحف ذكر، نحو ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَعَاعَةً﴾^(٦).

قال : ويدل على إرادته هذا أن أصحاب عبد الله من قراء الكوفة كحمزة والكسائي، ذهبوا إلى هذا فقرأوا ما كان من هذا القبيل بالتذكير، نحو : ﴿يَوْمَ شَهِدُوا عَلَيْهِمُ السِّنُّهُمْ﴾^(٧) وهذا فى غير الحقيقى.

ويذكر الزركشى فى برهانه ضوابط التأنيث ويضعها فى ضربين : حقيقى وغيره : فالحقيقى لا يحذف التأنيث من فعله غالبا إلا أن يقع فصل،

(١) ق : ١٠ .

(٢) لمائة : ٧ .

(٣) القمر : ٢٠ .

(٤) يس : ٨٠ .

(٥) ق : ٤٥ .

(٦) البقرة : ٤٨ .

(٧) النور : ٧٤ .

نحو : قام اليوم هند، وكلما كثر الفصل حسن الحذف، والإثبات مع الحقيقي أولى ما لم يكن جمعا.

وأما غير الحقيقي فالحذف فيه مع الفصل حسن، قال تعالى : ﴿فَنُجِئَهُمْ مَوْعِدَهُ﴾^(١) فإن كثر الفصل ازداد حسنا، ومنه ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾^(٢) ويحسن الإثبات أيضا، نحو : ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾^(٣) فجمع بينهما في سورة هود.

وأشار بعضهم إلى ترجيح الحذف، واستدل عليه، بأن الله تعالى قدمه عليه حيث جمع بينهما في سورة واحدة، وفيما قاله نظر^(٤).

^(١) البقرة : ٢٧٥.

^(٢) هود . ٦٧.

^(٣) هود : ٩٤.

^(٤) الوهمان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٢٧١.

الفصل الحادى عشر

التعبير عن الماضى بلفظ المستقبل وعكسه

التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل

ومن صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، التعبير بلفظ المستقبل عن الفعل الذى حدث فى الزمن الماضى، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى﴾^(١) أى يقول : إن المضارع يراد به الديمومة والاستمرار، كقوله : ﴿وَأَتَا مُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنَسُّونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ الْكَآبِ﴾^(٢).

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣). أى فكان استحضاراً لصورة تكوينه، وقوله تعالى : ﴿وَالَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾^(٤).

فعدل عن لفظ "أصبحت" إلى "تصبح" قصداً للمبالغة فى تحقيق اخضرار الأرض لأهميته؛ إذ هو المقصود بالإنزال.

فإن قلت: كيف قال النحاة : إنه يجب نصب الفعل المقرون بالفاء إذا وقع فى جواب الاستفهام، كقوله : ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شَعَاءٍ فَيَسْغُفُّوا لَنَا﴾^(٥) و"تصبح" هنا مرفوع. قلت لوجوه :

^(١) المائدة : ١١٦.

^(٢) البقرة : ٤٤.

^(٣) آل عمران : ٥٩.

^(٤) الحج : ٦٣.

^(٥) الأعراف : ٥٣.

أحدها : أن شرط إلغاء مقتضية للنصب أن تكون مسببة، وهذا ليست كذلك، بل هي للإستئناف، لأن الرؤية ليست مسببة للإصباح.

الثانى : أن شرط النصب أن ينسبك من الغاء وما قبلها شرط وجزاء، وهذا ليس كذلك، لأنه لو قيل : إن تر أن الله أنزل ماء تصبح، لم يصح، لأن إصباح الأرض حاصل، سواء رأت أم لا.

فإن قيل : شاع فى كلامهم إلغاء فعل الرؤية، كما فى قوله : "ولا تزال - تراها - ظالمة" أى ولا تزال ظالمة، وحينئذ فالمعنى منصب إلى الإنزال لا إلى الرؤية، ولا شك أنه يصح أن يقال : "إن أنزل تصبح" فقد انعقد الشرط والجزاء^(١).

قلت : إلغاء الرؤية فى كلامهم جائز لا واجب، فمن أين لنا ما يقتضى تعيين حمل الآية عليه.

الثالث : إن همزة الاستفهام إذا دخلت على موجب تعلقه إلى النفى، كقوله تعالى : ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ﴾^(٢)، وإذا دخلت على نفى تعلقه إلى الإيجاب، فالهمزة فى الآية للتقرير، فلما انتقل الكلام من النفى إلى الإيجاب لم ينتصب الفعل، لأن شرط النفى كون السابق منفياً محضاً.

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ

الْجُرُزِ فَنَخْرِجُ بِهِ زَرْعاً﴾^(٣).

^(١) الوهمان فى علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٧٥.

^(٢) ثلاثة : ١١٦.

^(٣) السجدة : ٢٧.

الرابع : أنه لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض لأن معناه إثبات الإخضرار، فكان ينقلب بالنصب إلى نفي الإخضرار، مثله أن تقول لصاحبك : ألم تر أنى أنعمت فتشكر، إن نصبت فأنت نافر لشكره، وإن رفعت فأنت مثبت لشكره، ذكر هذا الزمخشري في الكشف، قال : وهذا ومثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله^(١).

وقال ابن الخباز : النصب يفسد المعنى، لأن روية مخاطب الماء الذى أنزله الله ليس سبباً للإخضرار، وإنما الماء نفسه هو سبب الإخضرار.

ومنه قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَنَسْفًا إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾^(٢).

فقال : تثير " مضارعاً، وما قبله وما بعده ماضياً، مبالغة في تحقيق إثارة الرياح السحاب للسامعين وتقدير تصويره في أذهانهم.

فإن قيل : أهم الأفعال المذكورة في الآية إحياء الموتى، وقد ذكر بلفظ الماضى، وما ذكرته يقتضى أولوية ذكره بلفظ المضارع، إذ هو أهم، وإثارة السحاب سبب أعيد على قريب قيل : لا نسلم بأهمية إحياء الأرض بعد موتها، فالمتدمات المذكورة أهمها وألها على القدرة أعجبها وأبعدها عن قدرة البئر، وإثارة السحاب أعجبها، فكان أولى بالتخصيص بالمضارع، وإنما قال : إن إثارة السحاب أعجب لأن سببها أخفى، من

^(١) إرمهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٧٥.

^(٢) قاطر : ٩.

حيث إننا نعلم بالفعل أن نزول الماء سبب في اخضرار الأرض، وإشارة السحاب وسوقه سبب نزول الماء، فلو خيلنا وظاهر العقل لم نقل : إن الرياح سببها، لعدم إحماسنا بمادة السحاب وجهته^(١) .

ومن لواحق ذلك العدول عن المستقبل إلى اسم المفعول، لتضمنه معنى الماضى كقوله تعالى : ﴿يَوْمَ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾^(٢) تقريراً للجمع فيه، وأنه لا بد أن يكون معاداً للناس، مضروباً لجميعهم، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعِ﴾^(٣) لتعرف صحة هذا المعنى. فإن قلت : الماضى أدل على المقصود من اسم المفعول، فلم عدل عنه إلى ما دلالاته أضعف، قلت : لتحصل المناسبة بين "مجموع" و"مشهور" فى استواء شأنهما طلباً للتعديل فى العبارة. ومنه العدول عن المستقبل إلى اسم الفاعل، كقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾^(٤) فإن اسم الفاعل ليس حقيقة فى الاستقبال، بل فى الحال.

(١) البرهان فى علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٧٦.

(٢) هود : ١٠٣.

(٣) التآئين : ٩.

(٤) النوريات : ٦.

التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي

هو أحد أساليب خروج الكلام عن مقتضى الظاهر وتناوله كثير من العلماء، وذكروا أنه يغلب ذلك فيما إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهددة المستوعدة بها فيعدل فيه إلى اللفظ الماضي تقريراً وتحقيقاً لوقوعه.

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾^(١).

وقوله تعالى : ﴿وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ﴾^(٢).

وقوله تعالى : ﴿وَيَرْزُقُوا اللَّهَ جَمِيعًا﴾^(٣).

وقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ﴾^(٤)
أى نحشرهم.

وقوله تعالى : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾^(٥).

ثم تارة يجعل المتوقع فيه كالواقع، فيؤتى بصيغة الماضي مراداً به الماضي، تنزيلاً للمتوقع منزلة ما وقع، فلا يكون تعبيراً عن المستقبل بلفظ الماضي بل جعل المستقبل ماضياً مبالغة.

(١) فنمل : ٨٧.

(٢) الزمر : ٦٨.

(٣) يراعيهم : ٢١.

(٤) فكيف : ٤٧.

(٥) الأعراف : ٤٨.

ومنه : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْعَاجِلُوهُ﴾^(١) .

ومنه : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾^(٢) ونحوه .

وقد يعبر عن المستقبل بالماضى مراداً به المستقبل، فهو مجاز لفظي، كقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُفِخَ﴾^(٣) فإنه لا يمكن أن يراد به المضى؛ لمنافاة "ينفخ" الذي هو مستقبل في الواقع، وفائدة التعبير عنه بالماضى الإشارة إلى استحضار التحقق، وإنه من شأنه لتحقيقه أن يعبر عنه بالماضى وإن لم يرد معناه، والفرق بينهما أن الأول مجاز، والثاني لا مجاز فيه إلا من جهة اللفظ فقط^(٤) .

(١) النمل : ١٠ .

(٢) الأعراف : ٤٤ .

(٣) النمل : ٨٧ .

(٤) البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٢٧٢ .

الفصل الثانى عشر

١ - الالتفات

٢ - القلب

١- الالتفات

الالتفات هو أحد أشكال خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، وأسلوب من أساليب العرب، وبه وردت بعض آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ وهو من أهم أغراض النص الأدبي، لذلك كانت له خصائص أسلوبية متنوعة تحدث لنا من التأثير والإيقاظ في النفس، يلوحان بفوائد بلاغية ممتازة، يحرص عليها متعاطي الأدب ومتلقيه، ومن الذين أدركوا هذه الجماليات الأسلوبية في الالتفات وضربوا على أوتار النفس علماء البلاغة.

فالبلاغيون قد درسوا هذا الأسلوب منذ زمن إلا أن كل عالم تناوله بشكل يختلف عن الآخر، سواء في تعريفه أو في بيان قيمته البلاغية، فنجد ابن جني في الخصائص يوسم هذا الباب بشجاعة للربية، وتابعه في ذلك بعض العلماء، فقد استعار الشجاعة وهي قوة في نفس الحيوان يظهر آثارها على بدنه وجوارحه من إقدام وشدة بطش استعارها للغة العربية، لكثرة تصرفاتها المختلفة وهذا النوع عنده أعم هذا العلم فائدة^(١).

والالتفات هو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدرازا للسامع، وتجديداً لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملل والضجر، بدوام الأسلوب الواحد على سمعه، وقد اتفق جمهور العلماء على أن مقامات الالتفات هي: "التكلم والخطاب والغيبة" لذا يكون الانتقال من مقام إلى آخر يعد التعبير بالأول، بخلاف ما جاء عند السكاكي.

ولذلك نرى أن كلام الجمهور أخص من كلام السكاكي في هذا

(١) الخصائص، ج ١، ص ٣٠١، والمخضب، ج ١، ص ١٤٥.

الخصوص حيث إن كل التقات عندهم التقات عنده من غير عكس.
وبذلك يكون مذهب السكاكي أعم من مذهب الجمهور لأن الالتقات
عنده يتحقق بالتعبير عن المعنى بطريق من الطرق الثلاث على خلاف ما
يقتضيه الظاهر ويترقبه، سواء سبقه التعبير عن ذات المعنى بطريق آخر
منها أو لم يسبقه.

وجدير بالذكر أن السكاكي سار على نهج الزمخشري^(١) في هذا
المذهب وخالفه في ذلك السعد التفتازاني^(٢) والجمهور.
والرأى الراجح عندى فى الالتقات هو ما ذهب إليه السكاكي متابعا
فيه الزمخشري لاتساعه وشموله.
ويذكر الإمام السيوطي^(٣) فى معتركه أن كل موضع من مواضع
الالتقات يختص بنكت ولطائف باختلاف محله.
وصور الالتقات ست^(٤) :

الأولى : من التكلم إلى الخطاب كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي
فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٥) فقد عبر أولا عن الذات بطريق المتكلم
فى قوله : ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ثم انتقل، فعبر عنها
ثانياً بطريق الخطاب فى قوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

^(١) الكشف، ج ٤، ص ٤٤٢.

^(٢) شروح الطبعين، ج ١، ص ١٥٣، وللطول، ص ١٣٠.

^(٣) معرك الأكران، ج ١، ص ٣٧٨.

^(٤) للنهجاك الراشح، ج ٤، ص ٢٠٨، حامد عوني.

^(٥) يس : ٢٢.

فهذا التفاوت عل رأى الجمهور لوجود التعبيرين، ومخالفة الثانى منهما لظاهر السياق، ولما يترقبه السامع، إذا كان مقتضى الظاهر أن يقال: وإليه أرجع، سر الالتفات على رأى السكاكى أيضاً لمخالفته مقتضى الظاهر.

هذا إذا كان الضميران للمتكم، فإن كانا للمخاطبين كان فى التعبير الأول التفات على رأى السكاكى فقط لأنه على خلاف مقتضى الظاهر إذا كان مقتضى الظاهر أن يقال: "وما لكم لا تعبدون الذى فطركم" فعدل عن هذا الطريق إلى طريق التكلم تعريضاً بالمخاطبين، وهو لا يشترط أن يسبقه تعبير آخر، أما التعبير الثانى ففيه التفات على المذهبين.

الثانية: من التكلم إلى الغيبة كما فى قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا

عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةٍ﴾^(١) عبر أولاً عن المعنى بطريق

التكلم فى قوله: "يا عبادى" ثم انتقل فعبّر ثانياً عن المعنى بطريق

الغيبة فى قوله: "لا تقنطوا من رحمة الله" وكان مقتضى الظاهر

أن يقال: "لا تقنطوا من رحمتى" ففى التعبير الثانى على

المذهبين - أما عند الجمهور فلو جود التعبيرين، ومخالفة ثانيهما

لمقتضى ظاهر الكلام، ولما يترقبه المخاطب، وأما عند السكاكى

فلمخالفته لمقتضى الظاهر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ

الْكُوفَرُ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحُ﴾^(٢) ومقتضى الظاهر أن يقال: "فصل

لنا ففيه التفات عند الطرفين، على ما علمت.

^(١) الزمر: ٥٣.

^(٢) الكوثر: ١، ٢.

وفائدة الالتفات فى هذه الآية الكريمة نفع فى لفظ "الرب حُنا على فعل المأمور به لأن من يربيك يستحق العبادة.

الثالثة : من الخطاب إلى التكلم كما فى قوله تعالى : ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ

تُوبُوا إِلَهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾^(١) عبر أولاً عن الذات بطريق

الخطاب فى قوله : واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه" ثم التفت فعبر عنها ثانياً بطريق التكلم فى قوله "إن ربي رحيم ودود" ففى التعبير الثانى التفت على المذهبين - كما علمت ومثله قول الشاعر^(٢) :

طحاك قلب فى الحسان طروب

بعميد الشباب عصر حان مشيب

يكلبنى ليلى وقد شط وليها

وعادت عواد بيننا وخطوب

يخاطب الشاعر نفسه فيقول : أضربك قلب هائم بحب الحسان، شغوف بهن حين كاد حبل الشباب ينصرم ولايتى أن يطالبنى هذا القلب بوصل ليلى، ويفرينى بها فى وقت عز فيه وصلها، وحالت صروفه الزمان دونه ففى قوله : "يكلبنى" التفت على المذهبين، أما عند الجمهور فلوجود التعبيرين إذا انتقل من الخطاب فى "طحاك" إلى التكلم فى "يكلبنى" ولمخالفته الثانى منهما مقتضى ظاهر الكلام إذ مقتضى الظاهر أن يقول : "يكلفك" وأما عند السكاكى فلمخالفته لمقتضى الظاهر وفى قوله : "طحاك"

^(١) مرد : ٩٠.

^(٢) مر عاتمة بن عبده المحلى.

التفات على رأى السكاكى فقط لمخالفته الظاهر إذ كان مقتضاه أن يقول :
طحابى لأن المقام للتكلم فعدل عنه إلى الخطاب.

وروى "تكلفنى" بالثناء على أنه مسند إلى "لىلى" والمفعول محذوف،
ويكون المعنى حينئذ : تحملنى لىلى شداًئد فراقها فإن كان الفعل
المذكور - والحالة هذه مسنداً إلى القلب على أنه خطاب له كان التفات آخر
من الغيبة إلى الخطاب على المذهبين، أما على الجمهور فلوجود
التعبيرين، ومخالفة ثانيهما لظاهر السياق إذ عبر أولاً عن القلب بالاسم
الظاهر، وهو من قبيل الغيبة، ثم عبر ثانياً بطريق الخطاب فى قوله :
وتكلفنى" وكان مقتضى السياق أن يقول "يكلفنى" بالياء، والمفعول حينئذ
محذوف أى تكلفنى يا قلب أن أجرع مر فراقها وأما على رأى السكاكى
فلمخالفته لمقتضى الظاهر.

الرابعة : من الخطاب إلى الغيبة كما فى قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ
النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾^(١) ومثله قوله تعالى :
﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرْنَا بِهِمْ﴾^(٢) ففيه التفات على المذهبين
من الخطاب فى "كنتم" إلى الغيبة "بهم" أما عند الجمهور فلوجود
التعبيرين ومخالفة ثانيهما لمقتضى سياق الكلام، وأما السكاكى
فلمخالفته مقتضى الظاهر إذا كان مقتضى الظاهر أن يقول :
"بكم".

^(١) آل عمران : ٩.

^(٢) يونس : ٢٢.

الخامسة : من الغيبة إلى التكلم : كما فى قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ

الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾^(١) ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾^(٢)

ففى قوله : "وأنزلنا" التفات على المذهبين الغيبة فى قوله :

"وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمة" إلى التكلم فى

قوله : "أنزلنا"، أما عند الجمهور فلوجود التعبيرين، ومخالفة

ثانيهما لمقتضى ظاهر السياق إذ معناه أن يقال: "وأنزل" وأما

عند السكاكى فلمخالفته لهذا المقتضى، وفى التعبير الأول

التفات على رأى السكاكى فقط لمخالفته لمقتضى ظاهر المقام،

إذ مقتضاه أن يقول : "أنا الذى أرسلت... الخ، لأن المقام

للتكلم، فعدل عنه إلى الغيبة - ومثله قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي

أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُفِيرُ سَحَابًا فَيَسْقِيهِ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾^(٣) ، وفى التعبير

الأول التفات على رأى السكاكى فقط، وفى الثانى التفات على

المذهبين، ومثله قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ

لَيْلًا﴾^(٤) إلى أن قال : لنزله من آياتنا ولا يخفى عليك تخريج

المذهبين عليها.

^(١) الأعراف : ٥٧.

^(٢) الفرقان : ٤٨.

^(٣) طاهر : ٩.

^(٤) الإسراء : ١.

السادسة : من الغيبة إلى الخطاب كما فى قوله تعالى : ﴿ مَا لِكُم مِّنَ الدِّينِ ﴾ *

﴿ إِنَّا لَنَعْبُدُكُمْ ﴾ ^(١) فى "إياك نعبد" التفات على المذهبين لمخالفة ثانى التعبيرين لمقتضى ظاهر السياق عند الجمهور، ولمخالفته لمقتضى ظاهر المقام عند السكاكى إذ مقتضى الظاهر عند الطرفين أن يقال : إياه نعبد" فعدل عنه إلى الخطاب فقال : "إياك نعبد"

يقول ابن أبى الإصبع فى بديعه ^(٢) : وجاء فى الكتاب العزيز من الالتفات قسم غريب جداً لم أظفر فى الشعر له بمثال هداى الله إلى الوقوع عليه، وهو : أن يقدم المتكلم فى كلامه مذكورين مرتين، ثم يخبر عن الأول منهما، وينصرف عن الإخبار عنه إلى الإخبار عن الثانى، ثم يعود فينصرف عن الإخبار عن الثانى إلى الإخبار عن الأول كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ^(٣) انصرف عن الإخبار عن الرب عز وجل إلى الإخبار عن الإنسان : ﴿ وَإِنَّهُ لَحُبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ^(٤) ويختم حديثه بقوله : وهذا يحسن أن يسمى التفات الضمائر، والله أعلم.

وفى الحقيقة أننى لم أعثر على مثل هذا الرأى قبل ابن أبى

الإصبع.

^(١) التفاتة : ٤ ، ٥ .

^(٢) البص لابن أبى الإصبع، ص ٤٥ .

^(٣) المعانيات : ٦ ، ٧ .

^(٤) المعانيات : ٨ .

ويذهب صاحب المنهاج الواضح^(١) في أن الالتفات من مباحث علم البديع، لأنه إنما يبحث فيما يورث الكلام نظرية وبداعة، لا من أبحاث علم المعاني وموضوعه تطبيق الكلام على مقتضى الحال، ويجاب بأن المقام قد يقتضى مزيد اصغاء السامع، واسترعاء اهتمامه لخطر شأنه كان يكون المقام مدحاً في عظيم، أو إدلاء بحجة أو نحو ذلك ومن هذه الناحية يكون من مباحث علم المعاني، وأما من جهة أنه يكسب الكلام طرافة وظرفاً فمن مباحث علم البديع فتسمية ذلك النقل من طريق إلى طريق "بالالتفات" عند علماء المعاني لا تنافي تسميته بهذا الاسم عند علماء البديع.

هذا وقد قمنا ببحث الالتفات في أساليب القرآن الكريم في العدد الثالث عشر من مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية - لذا لزم التنويه.

^(١) المنهاج الواضح، ج ٤، ص ٢١٣، ١ / حامد عوفى.

٢- القلب

القلب هو أن يجعل جزء من الكلام مكان آخر يجعل مكانه على وجه يثب، حكم كل منهما للآخر، وهو قسمان : لفظي ومعنوي، وسأتي ببيانها في الأمثلة^(١).

وهو ضمن خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وقد ثار خلاف بين العلماء فمنهم من أنكره وعلى رأسهم حازم القرطاجني في كتاب "منهاج البلغاء" وقال إنه مما يجب أن ينزه كتاب الله عنه، لأن العرب إن صدر ذلك منهم فيقصد العبث أو التهكم أو المحاكاة أو حال اضطراب، والله منزّه عن ذلك^(٢).

وقبله جماعة مطلقاً منهم السكاكي بشرط عدم اللبس كما قال المبرد في كتاب "ما اتفق لفظه واختلف معناه"^(٣) وعبارته : ويقولون : أدخلت القلنسوة في رأسي، وأدخلت الخف في رجلي، وإنما يكون هذا فيما لا يكون فيه لبس ولا إشكال، وفصل آخرون بين أن يتضمن اعتباراً لطيفاً، فبليغ وإلا فلا، ولهذا قال ابن الصائغ، يجوز القلب على التأويل، ثم قد يقرب التأويل فيصح في فصيح الكلام، وقد يبعد فيختص بالشعر^(٤) وقيل : إنه لا يكاد أحد يمنعه مطلقاً لوروده في القرآن وفصيح الكلام، ولعلمهم يرون القلب اللفظي دون المعنوي^(٥).

^(١) بغية الإيضاح، ج ١، ص ١٦٣، الشيخ عبد الصمد المصري.

^(٢) الرومان، ج ٣، ص ٢٨٨.

^(٣) الكامل للمبرد، ص ٢٨.

^(٤) الرومان، ج ٣، ص ٢٨٨.

^(٥) بغية الإيضاح، ج ١، ص ١٦٣.

ولأن قلب الكلام ما يحوج إلى التنبيه للأصل، وذلك مما يورث الكلام ملاحه ولطفًا.

وقد قسمه الخطيب القزويني إلى قسمين : مقبول ومردود :

الأول : المقبول، كقول رؤبة بن العجاج :

ومهمة مغبرة أرجأه كان لون أرضه وسماؤه

فيه قلب يتضمن اعتبارًا لطيفًا، إذ جعل لون الأرض لغبرته وسمرته كلون السماء، مبالغة في تصوير السماء لشدة الغبار والقتمة، وكان الوجه أن يقول : كان لون سمائه لون أرضه، ولكنه قلب المعنى لاعتبار هذا النكتة البلاغية^(١). ونحوه، قول أبي تمام يصف قلم الممدوح :

لعاب الأفاعي القاتلات لعبه وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

وأرى الجنى العسل من إضافة الموصوف إلى الصفة، وقوله اشتارته - بمعنى جنته، والأيدى العواسل العارفة بجنه والأولى صفة العلم مع الأعداء، والثانية صفة مع الأصدقاء والشاهد في شطره الأول، وهو من القلب المعنوي أيضًا لأنه من التشبيه المقلوب، والاعتبار اللطيف فيه قصد المبالغة.

والثاني : المردود كقول القطامي :

فلما أن جرى سمن عليها كما طينت بالفدن السباع

أمرت بها الرجال ليأخذوها ونحن نظن أن لن تستطاعا

يصف بذلك ناقته، والFDن القصر، والسباع الدفن المخلوط بالنتن،

^(١) بغي الإيضاح، ج ١، ص ١٦٤، وانظر فن البلاغة، ص ٣١٠ د/ عبد القادر حسين.

أو الآلة التي يطحن بها، يعنى أنها صارت ملساء من السمن كالقصر المطين بالسماق، وفى ذلك قلب معنوى، فإن حمل السماق على الآلة لم يتضمن اعتباراً لطيفاً، وفيه الشاهد وإن حمل على الطين فيجوز أن يكون المقصود المبالغة فى سمنها لأنه يقصد تشبيهها بالسماق الذى صار لكثرة كانه الأصل والقدن هو القزع، فيكون هو أيضاً مثله مع أصله من العظم ونحوه، ولكنه لا يخلو من تكلف - روى - كما بطنت بالقدن السراعا - وهو على القلب أيضاً، والمعنى كما طينت القدن بالسماق^(١).

أما صاحب البرهان^(٢) : فيفرد له باباً ويقسمه إلى أنواع :

الأول : قلب الإسناد : وهو أن يشمل الإسناد إلى شىء والمراد غيره، كقوله تعالى : ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾^(٣) إن لم تجعل الباء للتعدي، لأن ظاهره أن المفاتيح تنوء بالعصبة، ومعناه أن العصبة تنوء بالمفاتيح لتقلها، فأسند "تنوء" إلى "المفاتيح"، والمراد إسناده إلى العصبة، لأن الباء للحال والعصبة مستصحبية المفاتيح، لا تستصحبها المفاتيح، وفادته المبالغة، يجعل المفاتيح كأنها مستتعبة للعصبة القوية لتقلها.

وقيل : لا قلب فيه، والمراد، والله أعلم - أن المفاتيح تنوء بالعصبة، أى تميلها من تقلها وقد ذكر هذا القراء وغيره. وقال ابن عصفور : والصحيح ما ذهب إليه الفارسي أنها بالنقل ولا قلب، والفعل غير متعد، فصار متعد بالباء لأن "باء" غير متعد، يقال باء الزجم، أى

^(١) بغية الإيضاح، ج ١، ص ١٦٥.

^(٢) البرهان، ج ٢، ص ٢٨٨.

^(٣) القصص : ٧٦.

نهض وقال : ناء، أى مال للسقوط، فإذا نقلت الفعل بالباء قلت : نوت به، أى أنهضته وأملت له للسقوط، فقوله : «لتنوء بالعصبة» أى تميلها المفاصل للسقوط لنقلها. قال : وإنما كان مذهب الفارسي أصح، لأن نقل الفعل غير المتعدى بالباء مقيس، والقلب غير مقيس^(١)، فحمل الآية على ما هو مقيس أولى.

ومنه قوله تعالى : «وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ»^(٢) أى خلق العجل من الإنسان، قاله ثعلب وابن السكيت.

قال الزجاجي : ويدل على ذلك «وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا»^(٣) قال ابن جني : والأحسن أن يكون تقديره : خلق الإنسان من العجلة، لكثرة فعله إياه، واعتماده له، وهو أقوى فى المعنى من القلب، لأنه أمر قد اطرده واتسع، فحمله على القلب يبعد فى الصنعة، ويضعف المعنى.

ولما خفى هذا على بعضهم قال : إن العجل هاهنا الطين، قال : ولعمري إنه فى اللغة كما ذكر، غير أنه ليس المراد هنا إلا نفس العجل، ألا ترى إلى قوله عقبه : «سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ»^(٤)، ونظيره قوله : «وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا»^(٥)، «وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا»^(٦) لأن العجلة ضرب من الضعف، لما تؤذن به الضرورة والحاجة.

^(١) لرومان، ج ٢، ص ٢٨٩.

^(٢) الأتياء : ٢٧.

^(٣) الإسراء : ١١.

^(٤) الأتياء : ٢٧.

^(٥) الإسراء : ١١.

^(٦) النساء : ٢٨.

وقيل : فى قوله : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾^(١) أى إنه من المقلوب، وأنه "وجاءت سكرة الحق بالموت"، وهكذا فى قراءة أبى بكر^(٢)، ومثله : ﴿لَكِنْ أَجَلٌ كَبَابٌ﴾^(٣) قال الفراء : أى لكل أمر كتبه الله لجل مؤجل.

وقيل فى قوله : ﴿وَإِنْ يُرَدِّكْ بِخَيْرٍ﴾^(٤) هو من المقلوب أى يريد بك الخير، ويقال : أراده بالخير وأراد به الخير.

الثانى : قلب المعطوف : إما بأن تجعل المعطوف عليه معطوفاً والمعطوف معطوفاً عليه، كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾^(٥) أى تدلى فدنا، لأنه بالتدلى نال الدنو والقرب إلى المنزلة الرفيعة وإلى المكانة لا إلى المكان.

وقيل لا قلب، والمعنى : ثم أراد الدنو فتدلى، وفى صحيح البخارى^(٦) : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ﴾^(٧) المعنى فإذا استعذت فاقرا. ٦

(١) ق : ١٩.

(٢) لرومان، ج ٣، ص ٢٩٠.

(٣) الرد : ٣٨.

(٤) يونس : ١٠٧.

(٥) النجم : ٨.

(٦) صحيح البخارى.

(٧) النحل : ٩٨.

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَبَاءَ مَا بَأْسُنَا﴾^(١) وقال :

صاحب الإيضاح : لا قلب فيه، لعدم تضمنه اعتباراً لطيفاً.

ورد بتضمنه المبالغة في شدة سورة البأس، يعنى هلكت بمجرد توجه الناس إليها، ثم جاءها.

الثالث : العكس : وهو أمر لفظي، كقوله تعالى : ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ

شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢).

وقوله : ﴿هَؤُلَاءِ لِبَاسُكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسُهُمْ﴾^(٣).

وقوله : ﴿الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾^(٤).

وقوله : ﴿يُوبِخُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُوبِخُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾^(٥).

الرابع : المستوى : وهو أن الكلمة أو الكلمات تقرأ من أولها إلى آخرها، ومن آخرها إلى أولها، لا يختلف لفظها ولا معناها، كقوله تعالى :

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾^(٦) ﴿كُلُّ فِي فَلَكٍ﴾^(٧).

(١) الأعراف : ٤.

(٢) الأنعام : ٥٢.

(٣) البقرة : ١٨٧.

(٤) للمتحة : ١٠.

(٥) الملحج : ٦١.

(٦) للنشر : ٣.

(٧) الأنبياء : ٣٣.

الخامس : مقلوب البعض : وهو أن تكون الكلمة الثانية مركبة من حروف الكلمة الأولى، مع بقاء بعض حروف الكلمة الأولى، كقوله

تعالى : ﴿فَرَّقْتُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(١).

فـ "بنى" مركب من حروف "بين" وهو مفرق، إلا أن الباقي بعضها في الكلمتين وهو أولها.

^(١) طه : ٩٤.

الفصل الثالث عشر

١ - أسلوب الحكيم

٢ - تجاهل العارف

١- أسلوب الحكيم

هو أحد أساليب خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، وقد عرفه البلاغيون بقولهم : هو تلقى كلام المخاطب بغير ما يترقب، وإجابة السائل بغير ما يتطلب بتزويل سؤاله منزله غيره تنبيهًا في الصورتين على أن هذا هو الأولى بأن يراد ويطلب^(١).

وقد سماه الإمام عبد القاهر^(٢) : المغالطة، وهو جدير بهذه التسمية وإن كانت مغالطة أدبية طريفة وسماه السيوطي^(٣) : فى المبال والمبالج. والجواب.

ولأسلوب الحكيم ضربان من ضروب التعبير.

الأول : تلقى المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على غير ما يريد، تنبيهًا على أنه الأولى بالقصد، وفيه شيء من المفاجأة والحكمة والتنبية اللطيف.

كقول ابن حجاج للبغدادى :

فقلت ثقلت إذ أتيت مرارًا قال : ثقلت كاهلي بالأيدى

قتل : طولت قال : لا بل تطولت وأبرمت قال : حبل وبادى

فلفظ ثقلت وقع فى كلام المتكلم بمعنى حملتك المئونة، فعمله

المخاطب على تنقيل عاتقه بالمنن والأيدى.

ومنه قول : القبعثرى^(٤) : للحجاج - لما قال له متوعدًا إياه،

"لأحملنك على الأدهم، يريد التقيد، فقال القبعثرى مثل الأمير يحمل على

^(١) بنية الإيضاح للعطرب التزوينى، ج ١، ص ١٥٩ - ١٦٠.

^(٢) دلائل الإعجاز، ص ٩٢، عبد القاهر المجرى.

^(٣) معوك الأكران، ج ٣، ص ٤٨٩، السيوطى.

^(٤) كان من رؤساء العرب وفصحائهم، وكان من الخوارج الذين نبرسوا على سيدنا "ع" كرم الله وجهه.

الأدھم والأشھب، يقصد القرس، فقد أبرز وعید الحجاج فی معرض الوعد حاملاً كلامه معنى لا یترقبه ولا ینتظره، فقال الحجاج، ویلك إنه الحديد، فقال : القبعثرى، لأن يكون حديدًا خیر من أن يكون بليدًا، فحمل كلامه أيضًا على غیر ما يريد تخطئة له، وأن الألیق به الوعد لا الوعد^(١). وعن سالك هذه الطریقة فی جواب المخطب عبر من قال مفتخر^(٢) :

أتت تشتكى عندى مزاولة القرى

وقد رأت الضیفان ینحون منزلى

فقات كانى ما سمعت كلامها

هُمُ الضیف جدى فی قراهم وعجلى

الثانى : فهو تلقى السائل بغیر ما یتطلب بتزید سؤاله منزلة غیره تنبیهاً على أنه الأهم.

كقوله تعالى : ﴿سَأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْتُمْ مِنْ خَيْرِ فُلُولِ الدِّينِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾^(١) فقد سألوا عن بیان ما ینفقون، فأجیبوا ببيان المصارف تنبیهاً على أن المهم هو السؤال عنها، لأن النفقة لا یعتد بها إلا أن تقع موقعها. وقوله تعالى : ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الْاهْلَةِ قُلْ هِيَ

^(١) بفتح الإيضاح، ج ١، ص ١٦٠.

^(٢) بفتح الإيضاح، ج ١، ص ١٦١.

^(٣) لقرة : ٢١٥.

مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجَّ (١) سألوا عن الهلال لم يبدو رقيقاً مثل الخيط ثم
يترأيد قليلاً قليلاً حتى يمتلئ ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، فأجيبوا
ببيان حكمة ذلك تنبيهاً على أن الأهم السؤال عن ذلك لا ما سألوا عنه، كذا
قال السكاكي ومن أتى بعده، واسترسل التفتازاني في الكلام إلى أن قال :
ليسوا ممن يطلع على دقائق الهيئة بسهولة، وأقول : ليت شعري من أين
لهم أن السؤال وقع عن غير ما حصل الجواب به، وما المانع من أن يكون
إنما وقع عن حكمة ذلك ليعلموها، فإن نظم الآية محتمل لذلك، كما أنه
محتمل لما قالوا، والجواب ببيان الحكمة دليل على ترجيح الاحتمال الذي
قلناه، وقرينة ترشد إلى ذلك، إذ الأصل في الجواب المطابقة للسؤال،
والخروج عن الأصل يحتاج إلى دليل، ولم يرد بإسناد لا صحيح ولا غيره
أن السؤال وقع عما ذكره؛ بل ورد ما يؤيد ما قلناه فأخرج ابن جرير، عن
أبي العالية، قال : بلغنا أنهم قالوا : يا رسول الله، لم خلقت الأهلة ؟ فأنزل
الله ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الْآهْلِ﴾ فهذا صريح في أنهم سألوه عن حكمة ذلك لا
عن كينيته من جهة الهيئة، ولا يظن ذو دين بالصحابة الذي هم أدق فهمًا،
وأغزر علمًا، أنهم ليسوا ممن يطلع على دقائق الهيئة بسهولة، وقد اطلع
عليها آحاد العجم الذي أطبق الناس على أنهم أبداً أذهاناً من العرب بكثير،
هذا لو كان للهيئة أصل معتبر، فكيف وأكثرها فاسد لا دليل عليه (٢).

وقد صنعت كتاباً في نقض أكثر مسائلها بالأدلة الثابتة عن رسول
الله ﷺ: الذي صعد إلى السماء ورآها عياناً، وعلم ما حوته من عجائب

(١) البقرة : ١٨٩.

(٢) معزك القرآن، ج ٣، ص ٤٨٩.

الملوكوت بالمشاهدة وأتاه الوحي من خالقها، ولو كان السؤال قد وقع عما ذكره لم يمتنع أن يجابوا عنه بلفظ يصل إلى أنه مهم، كما وقع ذلك لما سألوا عن المجرة وغيرها من الملكوتيات^(١).

نعم، المثال الصحيح لهذا القسم جواب : موسى لفرعون حيث قال : ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا^(٢) لأنه سؤال عن الماهية أو الجنس، ولما كان هذا السؤال في حق البارئ تعالى خطأ لأنه لا جنس له فيذكر ولا تترك ذاته، عدل إلى الجواب بالصواب ببيان الوصف المرشد إلى معرفته، ولهذا تعجب فرعون من عدم مطابقته للسؤال، فقال : ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾^(٣) أى جوابه الذى لم يطابق السؤال، فأجاب موسى : ﴿رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٤) المتضمن إبطال ما يعتقدونه من ربوبية فرعون نصاً، وإن كان دخل في الأول ضمناً إغلاطاً، زاد فرعون في الاستهزاء به، فلما رآهم لم يتفطنوا أغلظ في الثالث بقوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾^(٥) ومثال الزيادة في الجواب قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾^(٦) فى جواب ﴿مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾^(٧). وقول

^(١) معترك القرآن، ج ٣، ص ٤٩٠ للسيوطي.

^(٢) الشعراء : ٢٢، ٢٤.

^(٣) الشعراء : ٢٥.

^(٤) الشعراء : ٢٦.

^(٥) الشعراء : ٢٨.

^(٦) الأنعام : ٦٤.

^(٧) الأنعام : ٦٣.

موسى : ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْرِيقُهَا عَلَى غَنَمِي﴾^(١) فى جواب ﴿وَمَا بِكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى﴾^(٢) زاد فى الجواب استلذاذا ب خطاب الله .

وقول قوم إبراهيم : ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظُرُهَا عَيْنَيْنَا﴾^(٣) فى جواب : ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾^(٤) زادوا فى الجواب إظهار للاحتياج لعبادتها والاستمرار على مواظبتها ليزداد غيظ السائل .

ومثال النقص منه قوله تعالى : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾^(٥) فى جواب ﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾^(٦) أجاب عن التبديل دون الاختراع^(٧) .

قال الزمخشري : لأن التبديل فى إمكان البشر دون الاختراع فطوى ذكره للتبنيه على أنه سؤال جمال، وقال غيره : التبديل أسهل من الاختراع، وقد نفى إمكانه فالاختراع أولى .

قد يعدل عن الجواب أصلاً إذا كان السائل قصده للتعنيث، نحو :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾^(٨) قال : صاحب الإيضاح : إنما سأل اليهود تعجيزاً

(١) طه : ١٨ .

(٢) طه : ١٧ .

(٣) الشعراء : ٧١ .

(٤) الشعراء : ٧٠ .

(٥) يونس : ١٥ .

(٦) يونس : ١٥ .

(٧) معرك الأكراد، ج ٣، ص ٤٩١ .

(٨) الإسراء : ٨٤ .

أو تغليظاً إذ الروح يقال بالاشتراك على روح الإنسان، والقرآن، وعيسى وجبريل، وملاك آخر، وصنف من الملائكة، فقصده اليهود أن يسألوه، فبأى مسمى أجابهم، قالوا : ايمس هو، فجاءهم الجواب مجملاً، وكأن هذا الإجمال كيذاً يرد به كيدهم.

يذكر السيوطى فى معتركه قاعدة ويقول : قيل أصل الجواب أن يعاد فيه نفس السؤال، ليكون وقفه، نحو : ﴿أَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ قال : ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾^(١) فأنا فى جوابه هو "انت" فى سؤالهم، وكذا قوله : ﴿أَفَرَرْتُ﴾ وأخذتُ عَلَى ذَلِكَ إصْرِي قَالُوا أَفَرَرْنَا؟^(٢) فهذا أصله، ثم اتهم أتوا عوض ذلك بحروف الجواب^(٣).

وقد يحذف السؤال ثقة بفهم السامع بتقديره : نحو : ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾^(٤) فإنه لا يستقيم أن يكون السؤال والجواب واحد، فتعين أن يكون قل الله جواب سؤال، فكانهم سألوا لما سمعوا ذلك "من يبدأ الخلق ثم يعيده".

ويذكر الأصل فى الجواب أن يكون مشاكلاً للسؤال، فإن كان جملة اسمية فينبغى أن يكون الجواب كذلك، ويجئ كذلك فى الجواب المقدر، إلا ابن مالك قال : قوله زيد - فى جواب من قرأ : إنه من باب

(١) يوسف : ٩٠.

(٢) آل عمران : ٨١.

(٣) معزك الأقران، ح ٢، ص ٤٩٢.

(٤) يونس : ٣٤.

حذف الفعل، على جعل الجواب جملة فعلية قال : وإنما قدرته كذلك
لا مبتدأ مع احتماله، جرياً على عادتهم في الأجوبة إذا قصدوا تمامها :

قال تعالى : ﴿يٰ حَسْبِيَ الْعِظَامُ وَهِيَ رَبِّمُ﴾ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي
أَنشَأَهَا ^(١) وقوله : ﴿وَكُنْ مَسْأَلُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقُولُنَّ خَلَقْنَهُنَّ
الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ ^(٣)
فلما أتى بالجملة الفعلية مع فوات مشكلة السؤال علم أن تقدير الفعل أولى.

قال ابن الزمكاني في البرهان : أطلق النحويون القول بأن "زيداً"
في جواب من قام ؟ فاعل على تقدير قام زيد، والذي توجبه صناعة علم
البيان أنه مبتدأ لوجهين ^(٤).

أحدهما : أنه يطابق الجملة المسؤول بها في الاسمية، كما وقع التطابق
في قوله : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾ ^(٥) في
الفعلية وإنما لم يقع التطابق في قوله : ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ^(٦) لأنهم لو طابقوا لكانوا مقرين الإنزال وهم من

^(١) يس : ٧٨ - ٧٩.

^(٢) الفرقان : ٩.

^(٣) المائدة : ٤.

^(٤) معجزة القرآن، ج ٣، ص ٤٨٣.

^(٥) النحل : ٣٠.

^(٦) النحل : ٢٤.

الإذعان به على مفاوز. وأشكل على هذا : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾^(١) فى جواب : ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا﴾^(٢).

فإن السؤال وقع عن الفاعل لا عن الفعل، فإنهم لم يستهيموه عن الكسر، بل الكسر، ومع ذلك صدر الجواب بالفعل.

وأجيب بأن الجواب مقدر دل عليه السياق، إذ "بل" لا يصلح أن يصدر بها الكلام، والتقدير : ما فعلته، بل فعله، قال الشيخ عبد القاهر : وحيث كان السؤال ملفوظاً به فالأكثر ترك الفعل فى الجواب والاقتصار على الاسم وحده، وحيث كان مضمرًا فالأكثر التصريح به لضعف الدلالة عليه.

ومن غير الأكثر : ﴿سَبِّحْ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رَجُلٌ﴾^(٣) فى قراءة البناء للمفعول^(٤).

ويذكر السيوطى فى معتركه ما جاء فيما أخرجه البزار عن ابن عباس، قال : ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ما سألوه إلا عن اثنتى عشرة معبالة كلها فى القرآن.

وأورد الإمام الرازى بلفظ أربعة عشر حرفاً، وقال : منها ثمانية فى البقرة : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾^(٥) ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الْآيَةِ﴾^(٦) ﴿يَسْأَلُونَكَ

(١) الأنبياء : ٦٣.

(٢) الأنبياء : ٦٢.

(٣) النور : ٣٦ - ٣٧.

(٤) معترك القرآن، ج ٣، ص ٤٩٤.

(٥) البقرة : ١٨٦.

(٦) البقرة : ١٨٩.

مَاذَا يَنْفَعُونَ قُلُوبَ مَا أَنْتَقِمُ^(١) ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾^(٢) ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ
الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾^(٣) ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾^(٤) ﴿وَسَأَلُونَكَ مَاذَا يَنْفَعُونَ قُلُوبَ
الْعُقُوبِ﴾^(٥) ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلُوبَ هُوَ أَذَى﴾^(٦) . قَالَ وَالتَّاسِعَ ﴿وَسَأَلُونَكَ
مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾^(٧) وَالْعَاشِرَ ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلُوبَ الْأَنْفَالِ لِلَّهِ﴾^(٨) وَالْحَادِيَ
عَشَرَ ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾^(٩) وَالثَّانِيَ عَشَرَ ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ
الْجِبَالِ﴾^(١٠) وَالثَّلَاثَ عَشَرَ ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾^(١١) وَالرَّابِعَ عَشَرَ
﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْبَيْنِ﴾^(١٢) .

قلت : السائل عن الروح وذى القرنين مشركو مكة أو اليهود، كما
فى أسباب النزول لا الصحابة، فالخالص اثنا عشر كما صحت به
الرواية^(١٣) .

(١) البقرة : ٢١٥ .

(٢) البقرة : ٢١٧ .

(٣) البقرة : ٢١٩ .

(٤) البقرة : ٢٢٠ .

(٥) البقرة : ٢١٩ .

(٦) البقرة : ٢٢٢ .

(٧) الناحية : ٤ .

(٨) الأنفال : ١ .

(٩) لقاحمات : ٤٢ .

(١٠) طه : ١٠٥ .

(١١) الإسراء : ٨٥ .

(١٢) الكهف : ٨٣ .

(١٣) معزك القرآن، ج ٣، ص ٤٩٤ للسيوطي.

ومن فوائد هذا الباب يقول الراغب الأصفهاني : السؤال إذا كان للتعريف تعدى إلى المفعول.

والثاني : تارة بنفسه وتارة بعن وهو أكثر، نحو ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾^(١)
وإذا كان لاستدعاء مال فإنه يُعَدَّى بنفسه أو بعن، وينفعه أكثر
نحو ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾^(٢)
﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْقَضْتُمْ﴾^(٣) ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٤).

(١) الإسراء : ٨٥.

(٢) الأحزاب : ٥٣.

(٣) الممتحنة : ١٠.

(٤) النساء : ٣٢.

٢- تجاهل العارف

وهو أسلوب من أساليب خروج الكلام عن مقتضى الظاهر. نرى أن ابن أبي الإصبع^(١) يقول في بديعه : وهذه تسمية ابن المعتز^(٢)، وهو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلاً منه ليخرج كلامه مخرج المدح أو الذم، أو ليدل على شدة الوله في الحب، أو لقصد التعجب، أو التوبيخ، أو التقرير وهو على قسمين : موجب ومنفى، وكل قسم على ضربين ضرب يكون الاستفهام فيه عن شيئين، أحدهما واقع والآخر غير واقع، وللمتكلم أن ينطق بأحدهما ويسكت عن الآخر، لدلالة الحال عليه.

وعرفه السكاكي : «يسوق المعلوم مصداق غيره»^(٣) وعرفه الخطيب القزويني : بمزج الشك باليقين، وهو إخراج ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزداد تأكيداً، والداعي إليه. وعرفه الزركشي^(٤) : «إخراج الكلام مخرج الشك في اللفظ دون الحقيقة لضرب من المسامحة وحسم العقاد.

وقد اتفق العلماء على أنه يخرج إلى أغراض بلاغية مختلفة منها:
١- المدح : كقول ذي الرمة :

أيا طبية الوعاء بين جلاجل^(٥)

وبين النقى أنت أم أم سالم

^(١) بلع القرآن لابن أبي الإصبع، ص ٥٠.

^(٢) البديع لابن المعتز، ص ١١١.

^(٣) الإيضاح، ص ٨٥، عروة ابن حجة، ص ١٢٢.

^(٤) لفرمان، ج ٢، ص ٤٠٩.

^(٥) الوعاء وجلاجل والنقى - مواضع.

وقول أبي هلال العسكري :

أشعر ما أرى أم أحمق أم أحمق
وقد ما أرى أم خيزران

٢- الذم : كقول زهير بن أبي سلمى :

وما أدرى وسوف إخال أدرى

أقوم آل حصن أم نساء

٣- التعجب : كقوله تعالى : ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾^(١) وقوله

تعالى : ﴿أَشْرَأُ مِنْكَ وَاحِدًا سَعَةً﴾^(٢).

٤- التوبيخ : كقول ليلى بنت طريف الخارجية حين قتل أخوها الوليد بن طريف:

أيا شجر الخابور مالك مورقا^(٣)

كانك لم تجزع على ابن طريف

٥- الفخر : كقول الشاعر :

أينا تعرف المواقف منهم وثبات على العدا وثباتا

٦- التقرير : قوله تعالى : ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا لِلنَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾^(٤).

^(١) الطور : ١٥.

^(٢) القمر : ٢٤.

^(٣) لخابور شجر دهم بالحضر.

^(٤) الأنبياء : ٦٦.

٧- التذلة : كقول الشاعر :

يا لله يا ظبيات القاع قلن لنا

ليلاى منكن أم ليلى من البشر

وكل هذه المواضع من القسم الموجب.

وأما ما جاء من القسم المنفى : فيذكر ابن أبى الإصبع له شواهد

قرآنية منها : قوله تعالى : ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾^(١).

فجاء هذا اللفظ فى هذه الآية متجاوزاً تشبيه العرب كل من راعهم حسنه من البشر بالجن، إلى تشبيه يوسف صلوات الله عليه حين كان حسنه رائعا، وله مع الروعة نور وطلاقة، وعليه سكينه تؤمن ناظره من تلك الروعة تثبت قلبه لما يسرى إليه من سكينه، فكان كذلك تشبيهه بالملك الكريم، أصح وأوقع وأشد مطابقة من أكثر الجهات^(٢).

أما صاحب البرهان فقد ذكر له شواهد قرآنية كقوله تعالى : ﴿وَأَنَا

أُولَئِكَ لَمْ أَكُنْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٣) لكنه أخرج الكلام مخرج الشك تغاضيا ومسامحة ولا شك عنده ولا ارتياب.

وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾^(٤) ونحوه :

^(١) يوسف : ٣١.

^(٢) ينفع القرآن، ص ٥١.

^(٣) سبأ : ٢٤.

^(٤) الفرقان : ٨١.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾^(١) أورد على طريق الاستقهام، والمعنى هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتامرتم عليها لما تبين لكم من المشاهد ولاح منكم في المخايل : "أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم" تهالكا على الدنيا^(٢) .

وإنما أورد الكلام في الآية على طريق سوق غير المعلوم سياق غيره، ليؤيدهم التأمل في التوقع عن يتصف بذلك إلى ما يجب أن يكون مسبباً عنه من أولئك الذين أحهمهم الله، وأعمى أبصارهم، فليزهم به على اللطف وجه، إبقاء عليهم من أن يفاجئهم به وتأليفا لقلوبهم، وبذلك التفت عن الخطاب، إلى الغيبة، تقادياً عن مواجهتهم بذلك.

ويقول الزركشي : وقد يخرج الواجب في صورة الممكن كقوله تعالى : ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾^(٣) ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ الْفَتْحُ أَوْ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ﴾^(٤) . ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾^(٥) ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾^(٦) ، وقد يخرج الإطلاق في صورة التقييد كقوله :

﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾^(٧) .

(١) محمد : ٢٢ .

(٢) لوهان، ج ٣، ص ٩٠٩ .

(٣) الإسراء : ٧٩ .

(٤) المائدة : ٥٢ .

(٥) الإسراء : ٨ .

(٦) البقرة : ٢١٦ .

(٧) الأعراف : ٤٠ .

ومنه قوله تعالى حاكياً عن شعيب ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ رَبَّنَا﴾^(١) فالمعنى لا يكون أبداً من حيث علته بمشيئة الله، لما كان
معلوماً أنه يشاؤه، إذ يستحيل ذلك على الأنبياء، وكل أمر قد علق بما لا
يكون، فقد نفى كونه على أبعد الوجوه.

وقال قطرب^(٢) : فى الكلام تقديم وتأخير، والاستثناء من الكفار لا
من شعيب، والمعنى : لنخرجنك يا شعيب، والذين آمنوا معك من قريتنا،
إلا أن يشاء الله أن نعودوا فى ملتهم، ثم قال تعالى حاكياً عن شعيب :
﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾^(٣) على كل حال. وقيل : الهاء عائدة إلى
القرية، لا إلى الله^(٤).

وإذا كان تجاهل العارف يقع ضمن علم اليبيع حسبما وضعه
السكاكي وعلماء البلاغة المتأخرون إلا أنه يخرج الكلام فيه عن مقتضى
الظاهر، فلذا رأينا أن نضعه فى هذا الباب.

^(١) الأعراف : ٨٩.

^(٢) عالم فى النحو.

^(٣) الأعراف : ٨٩.

^(٤) البرهان، ج ٣، ص ٢١٠.

الفصل الرابع عشر

١- وقوع الخبر موقع الإنشاء

٢- وقوع الإنشاء موقع الخبر

وقوع الخبر موقع الإنشاء

هذا الأسلوب ضمن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر وله صور متعددة وأغراض بلاغية مختلفة منها^(١) :

١- التناول في الجمل الدعائية، نحو : "وفقك الله إلى ما فيه الخير، وقول النابغة :

أتانى (أبيب اللعن) أنك لتنى

وتلك التى اهتم منها وأنصب

٢- التباعد عن صيغة الأمر تأدياً واحتراساً للمسمع كما تقول لعظيم : ينظر فى شأنى ويقضى طلبتى، مكان انظر واقضى.

٣- التنبيه على تيسر المطلوب لوفرة الأسباب واستكمال العدة، كما يقول القائد حاتماً جنده : تفتكون بالأعداء، وتنزلونهم من حصونهم وتذيقونهم الردى، مكان افتكوا وأنزلوهم وأذيقوهم.

٤- إظهار الرغبة فى حصول المطلوب، كما تقول فى الكتاب لغائب جمع الله الشمل وقرب أيام اللقاء.

٥- التنبؤ على سرعة الامتثال ولو ادعاء، نحو : وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا

تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ^(٢) مكان لا تسفكوا مبالغة فى النهى بادعاء أنهم نهوا فامتثلوا ثم أخبروا.

^(١) علوم بلاغة، ص ١٤٦ للمراغى.

^(٢) البقرة : ٨٤.

٦- حمل المخاطب على الفعل بالطف أسلوب، كقولك لرجل لا تحب أن يكذبك: تحبّ غذا، مكان قولك : جئ لتحمله على المجئ، لأنه إن لم يأت غذا صرت كاذباً من حيث الظاهر لكون كلامك فى صورة الخبر^(١).

ومن مثال خروج الخبر إلى الإنشاء، نجد "أبا عبيدة معمر بن المثنى" يقول : فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢) هذا كلام هو إخبار، خرج مخرج الاستفهام، وليس هذا إلا فى ثلاثة مواضع هذا أحدها، والثانى : ما أبالى أقبلت أم أدبرت، والثالث : ما أدرى أو ليت أم جاء فلان.

وقوله تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾^(٣) ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَرْضِعْنَ﴾^(٤) ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾^(٥) ﴿وَالْيَوْمَ يَنْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(٦) وقوله : ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾^(٧) ولهذا جعلها العلماء من أمثلة الواجب.

وقوله تعالى : ﴿فَلَارْقَتَ وَلَا فُسُوقَ﴾^(٨) على قراءة نافع أى لا ترفثوا ولا تفسقوا.

^(١) علوم البلاغة، ص ١٤٧ للمرافى.

^(٢) البقرة : ٦.

^(٣) البقرة : ٢٢٣.

^(٤) البقرة : ٢٢٨.

^(٥) طه : ٢٤.

^(٦) يوسف : ٩٢.

^(٧) البقرة : ٨٩.

^(٨) البقرة : ١٩٧.

﴿وَمَا تَتَّقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾^(١) قالوا : هو خير وتأويله نهى، أى لا تتقوا إلا ابتغاء وجه الله، كقوله تعالى : ﴿لَا يَسْأَلُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(٢) وقوله تعالى : ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِكِدِّهَا﴾^(٣) على قراءة الرفع، وقيل : إنه نهى مجزوم - أعنى قوله "لا يمسه" ولكن ضمت اتباعاً للمضنير كقوله ^(٤) : «إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم»^(٥) .

وقوله : ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾^(٦) ضمن "لا تعبدون" معنى "لا تعبدوا" بدليل قوله بعده ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٧) وبه يزول الإشكال فى عطف الإنشاء على الخبر، لكن إن كان "حسناً" معمولاً لأحسنوا، فعطف "قولوا" عليه أولى لاتفاقهما لفظاً ومعنى، وإن كان التقدير "يحسنون" فهو الذى قبله، والعطف على القريب أولى، وقيل : "لا تعبدون" أبلغ من صريح النهى لما فيه من إيهام أن المنهى يسارع إلى الإنهاء فهو مخبر عنه^(٨) .

وكذا قوله : ﴿وَيَسِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٩) عطفاً على قوله تؤمنون بالله ورسوله. ولهذا جزم الجواب.

(١) البقرة : ٢٧٢ .

(٢) الواقعة : ٧٩ .

(٣) البقرة : ٢٣٣ .

(٤) الرومان، ج ٣، ص ٣٤٧ .

(٥) البقرة : ٨٣ .

(٦) البقرة : ٨٣ .

(٧) الرومان، ج ٣، ص ٣٤٨ .

(٨) الصف : ١٣ .

وقوله : ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾^(١) إلى قوله :
 ﴿وَأَسَارُوا الْيَوْمَ﴾^(٢) فإن المقام يشتمل على تضمين "إن أصحاب الجنة
 اليوم" معنى الطلب، بدليل ما قبله ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾^(٣) فإن كلام
 وقت الحشر لوروده معطوفاً بالفاء، على قوله : ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيَّحَةً وَاحِدَةً
 فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾^(٤) وعام لجميع الخلق لعوم قوله : "لا تظلم
 نفس شيئاً" وإن كان الخطاب الوارد بعده على سبيل الالتفات، وهو قوله :
 ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٥) خطاب عام لأهل المحشر، فيكون قوله :
 ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾ إلى قوله ﴿أَيُّهَا الْمُبْجُرُسُونَ﴾^(٦)
 مقيداً بهذا الخطاب لكونه تنصيلاً لما أجمله : ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ
 تَعْمَلُونَ﴾^(٧).

وإن التفسير أن أصحاب الجنة منكم يا أهل المحشر، ثم جاء في
 التفسير أن قوله هذا "إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون" يقال لهم

(١) يس : ٥٥ .

(٢) يس : ٥٩ .

(٣) يس : ٥٤ .

(٤) يس : ٥٣ .

(٥) يس : ٥٤ .

(٦) يس : ٥٩ .

(٧) يس : ٥٤ .

حين يساق بهم إلى الجنة، بتنزيل ما هو لتكوين منزلة الكائن، أى إن أصحاب الجنة منكم يا أهل المحشر، يؤول حالهم إلى أسعد حال، والتقدير حينئذ "قامتازوا عنكم إلى الجنة، هكذا قرره السكاكى فى المفتاح.

قيل : وفيه نظر، لأنها إذا كانت طلبية ومعناها أمر المؤمنين بالذهاب إلى الجنة، فليكن الخطاب معهم لا مع أهل المحشر.

ولهذا قال بعضهم : إن تضمن أصحاب أهل الجنة للطلب ليس المراد منه أن الجملة نفسها طلبية، بل معناها أن يقدر جملة إنشائية بعدها^(١)، بخلاف قوله تعالى : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٢).

ومنه قوله تعالى : ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُعْلَمِينَ﴾ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ^(٣).

ويعقب ابن جنى على هذه الآية فيقول : لا يكون "يغفر" جواباً لـ "هل أدلكم" وإن كان أبو العباس قد قاله، لأن المغفرة تحصل بالإيمان لا بالدلالة. انتهى.

وقد يقال : الدلالة بسبب السبب.

أما الزركشى فيقول : إذا علمت هذا، فإنما يجئ الأمر بلفظ الخبر الحاصل تحقيقاً لثبوته وأنه مما ينبغي أن يكون واقعاً ولابد، وهذه هى المشهورة.

(١) الزمخشري، ج ٢، ص ٢٤٩.

(٢) البقرة : ٨٣.

(٣) الصف : ١١، ١٢.

وفيه طريقة أخرى نقلت عن القاضي أبي بكر وغيره، وهي أن هذا خبر حقيقة غير مصروف عن جهة الخبرية، ولكنه خبر عن حكم الله وشرعه ليس خبراً عن الواقع حتى يلزم ما ذكره من الإشكال، وهو احتمال عدم وقوع مخبره، فإن هذا إنما يلزم الخبر عن الواقع، أما الخبر عن الحكم فلا، لأنه لا يقع خلافه أصلاً.

٢ - وقوع الإنشاء موقع الخبر

وهو ضمن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر وله صورة منها :

١- إظهار العناية بالشئ والاهتمام به، نحو ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا
وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(١) لم يقل : وإقامة وجوهكم، إشعار بالعناية
والصلاة لعظيم خطرها وجليل قدرها في الدين.

٢- التبعاد عن مساواة اللاحق بالسابق، نحو : ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ
أَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ﴾^(٢) لم يقل : وأشهدكم، تحاشياً عن
مساواة شهادتهم بشهادة الله تعالى.

٣- الرضا بما حاصل كأنه مطلوب في قوله عليه الصلاة والسلام من كذب
على متعمداً فينبأ مقعده من النار « مكان ينبأ.

وقد يخرج الإنشاء إلى الخبر كما جاء في قوله تعالى : ﴿أَتَجْعَلُ
فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(٣).

جاء على لفظ الاستفهام والملائكة لم تستقم ربها، وقد قال تبارك
وتعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

(١) الأعراف : ٦٩.

(٢) هود : ٥٤، ٥٥.

(٣) البقرة : ٣٠.

يقول أبو عبيدة^(١) : ولكن معناها معنى الإيجاب، أى أنك ستفعل، فأوجب ولم يستفهم.

تناول الزركشى الإنشاء الذى يوضع موضع الخبر وذكر له أمثلة من أساليب القرآن الكريم منها :

قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الصَّلَاةِ فليمددْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾^(٢) وقوله : ﴿قُلْ آمِنُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾^(٣) وقوله : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ نُصَلِّي﴾^(٤) وقوله : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾^(٥) فنقوله "والق" معطوف على قوله "أن بورك" و"ألقي" وإن كان إنشاء لفظاً، لكن خبر معنى، والمعنى : فلما جاءها قبل : بورك من فى النار، وقيل : ألقي.

والموجب لهذا قول النحاة إن "أن" هذه مفسرة لا تأتى إلا بعد فعل فى معنى القول، وإذا قيل : كتبت إليه أن أرجع، ونادأنى أن قم، كله بمنزلة : قلت له وقال لى قم. كذا قال صاحب، المفتاح، وما ذكره من أن "بورك" خبرية لفظاً ومعنى ممنوع لجواز أن يكون دعاء وهو إنشاء، وقد

^(١) مجاز القرآن، ج ١، ص ٣٥.

^(٢) مريم : ٢٥.

^(٣) البقرة : ٥٢.

^(٤) البقرة : ١٢٥.

^(٥) النمل : ٨ - ١٠.

ذكر هذا التقدير الفارسي وأبو البقاء، فتكون الجملتان متفتحتين في معنى الإنشاء، فتكون مثل "لا تعبدون إلا الله" (١).

وقوله : ﴿وَلَا يَسْتَأْذِنُ بَدْعُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (٢) إلى قوله : ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَادِبُونَ﴾

فإنه يقال : كيف ورد التمني على التكذيب وهو إنشاء ؟

وأجاب الزمخشري أنه ضمن معنى العدة، وأجاب غيره بأنه محمول على المعنى من الشرط أو الخبر، كأنه قيل : إن رددنا لم نكذب وآمنا، والشرط خبر، فصح ورود التكذيب عليه.

وقوله : ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ (٣) أى ونحن حاملون،

بدليل قوله : ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَادِبُونَ﴾ (٤) والكذب إنما يرد على الخبر.

وقوله : ﴿أَسْمِعْهُمْ وَأَنصِتْ﴾ (٥) تقديره : ما أسمعهم وأبصرهم، لأن

الله تعالى لم يتعجب منهم، ولكنه دل المكلفين على أن هؤلاء قد نزلوا منزلة من يتعجب منه، ومما يدل على كونه ليس أمراً حقيقياً ظهور الفاعل الذى هو الجار والمجرور فى الأول، وفعل الأمر لا يبرز فاعله أبداً، ووجه التجوز فى هذا الأسلوب أن الأمر شأنه أن يكون ما فيه داعية للأمر، وليس الخبر كذلك، فإن عبر عن الخبر بلفظ الأمر أشعر ذلك بالداعية، فيكون ثبوته وصدقه أقرب، هذا بالنسبة لكلام العرب لا لكلام

(١) البرهان، ج ٣، ص ٣٥٠.

(٢) الأنعام : ٢٧ - ٢٨.

(٣) العنكبوت : ١٧.

(٤) الأنعام : ٢٨.

(٥) مريم : ٣٨.

الله، إذ يستحيل في حقّه سبحانه الداعية للفعل. يطرح الزركشى سؤالاً فيقول :

بقي الكلام في أيهما أبلغ ؟ هذا القسم أو الذي قبله ؟

قال الكراشى في قوله تعالى : ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾^(١) الأمر بمعنى الخبر، لتضمنه اللزوم، نحو : إن رزقنا فلنكرمك، يريدون تأكيد إيجاب الإكرام عليهم.

وقال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾^(٢) ورود الخبر، والمراد الأمر أو النهي، أبلغ من صريح الأمر والنهي، كأنه سورع فيه إلى الامتثال والخبر عنه^(٣).

وقال النووي في شرح "مسلم" في باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها : وقوله ﷺ : «لا يخطب الرجل على خطبة أخيه، ولا يسوم على سوم أخيه، هكذا في جميع النسخ، "ولا يسوم" بالواو "ولا يخطب" بالرفع، وكلاهما لفظة لفظ الخبر، والمراد به النهي، وهو أبلغ في النهي، لأن خبر الشارع لا يتصور وقوع خلافه، والنهي قد يقع مخالفته، فكان المعنى عاملوا هذا النهي معاملة خبر الحتم، ثم قال ﷺ : «ولا تسأل المرأة ملقاً أختها» يجوز في تسأل الرفع والكسر، والأول على الخبر الذي يراد به النهي، وهو المناسب لقوله قبله : «لا يخطب» ولا يسوم، والثاني على النهي الحقيقي. انتهى^(٤).

^(١) مريم : ٧٥.

^(٢) البقرة : ٨٢.

^(٣) الرومان، ج ٢، ص ٢٥٠.

^(٤) الرومان، ج ٢، ص ٢٥٢.

الفصل الخامس عشر

١- وضع المظهر موضع المظهر

٢- وضع المظهر موضع المظهر

المظهر والمضمور

لاحظ البلاغيون أن دراسة وضع المظهر موضع المضمور وعكسه، ودراسة الالتفات تتصل بباب المسند إليه لأنها من أحواله فالحقوها به، كما لاحظوا أن أساليبها مما لا تجرى على مقتضى المقررات المتعارفة، وإنما هي ضروب من المخالفة، فترجموا لها بخروج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر وألحقوا به أسلوب الحكيم لأنه ضرب من المخالفة، كذلك تجاهل العارف.

وقد تابعناهم في ذلك لبناؤه على ملاحظات دقيقة في ربط مباحث العلم وتلاحقها في نظام يجمعها.

أما مخالفة مقتضى الظاهر في الإضمار والإظهار فقد قالوا : الأصل ألا يذكر الضمير إلا وقد سبقه ما يعود عليه ليكون المقصود بالكلام واضحاً، تقول : تقيت زيذا وأكرمته، فتذكر الضمير أكرمته لأنه سبقه ما يعود عليه، ولا تقول : تقيته هكذا ابتداء لأن ذلك ضرب من التعمية والإلباس يناقض القصد من اللغة والبيان.

ومع وضوح هذا الأصل نجد صوراً من الأساليب بنيت على خلافه، فيذكر الضمير ليُفسر بمُتأخر عنه في بعض هذه الصور، أو يذكر من غير مفسر اعتماداً على فهم السامع أو وضوح المعنى أو غير ذلك مما نشير إلى بعضها إن شاء الله^(١).

١- وضع المضمور موضع المظهر

ومن الصور التي يفسر فيها الضمير بمُتأخر عنه ما يكون فيه

^(١) معاصم الواكيب، ص ١٨٧، د / محمد أبو موسى.

ضمير الشأن والقصة والأساليب التي تصاغ على هذه الطريقة حين تصيب مواقعها، نجد لها مذاقاً حسناً ووقعاً جليلاً، لأن الضمير حين يطرُق النفس من غير أن يكون عائد يعود عليه، يصيرها إلى حالة من الغموض والإبهام لا قرار لها معها، فتستشرف إلى اكتشاف الحقيقة المتوارية وراء الغموض المثير، فإذا جاءت الجملة المفسرة تمكن معناها، ووقع في القلب موقع التبول.

وتراهم لا يبنون الكلام على هذا الأسلوب إلا قى المعانى المهمة التى يهينون النفوس لتلقيها، وإذا رأيتهم يمثلون له يمثل، قولنا هو زيد قائم أو هي هند قائمة، وإن كانوا يقولون إن المختار فى ضمير القصة ألا يرد إلا إذا كان فى العبارة مؤنثاً لا لأن هذا المؤنث هو مرجعه - لأن مرجعه هو الجملة كلها، ولكن لأن حس الكلمات كأنه ألف ضمير المؤنث المذكوراً فيما فيه تأنيث، إذا رأيتهم يمثلون لهم يمثل هذه الأمثلة.

فاعلم أنها أمثلة نحوية لا تراعى فيها المعانى بقدر ما يراعى فيها ببيان الصناعة وشرح القاعدة، وليس من التصحيح أن نقول : هو زيد قائم أو هي هند قائمة، لأن الخبر الواقع بعد ضمير الشأن، لابد وأن يكون خبراً ذا بال، نعم يصح ذلك إذا كان زيد أو هند مما يكون خبر قيامه مهماً لأن الشأن فيه لا يقوم لمانع يعلمه المخاطب، وأردت إخباره بزوال هذا وأن زيذا صار يقوم^(١).

وللاضمار فى مقام الإظهار موضعين :

(١) خصائص التراكيب، ص ١٨٨، د/ أبو موسى.

الأول : باب ضمير الشأن والقصة، ومن مواقع الجليلة قوله تعالى : ﴿قُلْ

هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١) فقوله هو ضمير الشأن ومفسره الجملة بعده،

وواضح أن مضمونها معنى كبير هو محور الصراع في تاريخ

البشرية ولو قال سبحانه وتعالى : ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ لما وجدت للكلام

هذا الأثر، وهذه القوة التي تحسها النفس من هذه التهيئة المؤننة

بأن ما سيأتى بعدها كلام له خطر عظيم.

وفي قوله تعالى : بعد ما ذكر قصة المكذبين وإهلاكه القرى وهى

ظالمة قال : ﴿أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ

يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْنَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْنَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٢) وسر

هذا الأسلوب المبالغة وتعظيم تلك القصة وتغვიغها، من قبل أن الشئ إذا

كان مبهمًا كانت النفوس متشوقة إلى فهمه، متطلعة إلى عمله، فإذا وضع

وفسر حل محلًا رفيع القدر لديها، ومن ثمة لا يكون إلا فى المواضع التى

يقصد فيها التهويل.

ومنه قول أبى خراش الهذلى فى أبياته التى ذكر فيها عروة أخاه

وخراش ابنه، وكانا قد أسرا فقتل عروة ونجا خراش قال :

حمدت إلهى بعد عروة إذ نجا خراش وبعض الشر أهون من بعض

فوالله ما أنسى قتيلا رزيت به بجانب قوسى مامشيت على الأرض

^(١) الإعلاص : ١ .

^(٢) الحج : ٤٦ .

على أنها تعفو الكلوم وإنما نوكل بالأدنسى وإن جل ما يمضى
قال على أنها فذكر ضمير القصة وهما به النفس لتلقى هذا المعنى
الغريب الذى يشير إلى أن الآلام مهما كانت قاسية، فإنها لا تستعصى على
الأيام التى تبطلها وتطوئها ويشير أيضاً إلى أن الإنسان مستهدف للأحداث
وأن تعاقبها يجعل المرء فى شغل بالثانية عن الأولى، وكان هذا المعنى
غريباً لأنه استترك به على قوله قبله : فوالله ما أنسى قتيلاً، وقد ألم
الأحوص بهذا المعنى قوله :

إن القديم وإن جلّت رزيقته ينضو فينسى ويبقى الحادث الأنف
قال المرزوقى : وأبلغ مما قاله قول الآخر :

فلم تنس أو فى المصيبات بعده ولكن نكء القرح بالقرح أوجع
ومنه قول أبى تمام :

على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب^(١)
الثانى : باب نعم وبئس، نحو : نعم رجلاً محمد، وبئس غلاماً سعيد،
وانتصاب ما بعدهما من النكرات يجرى على جهة التفسير، والداعى
إليه المبالغة فى المدح أو الذم، من حيث إنه عند الإيهام يكون
للكنفذة تطلع إلى إيضاح المبهم وشغف إلى بيانه^(٢).

وقد يأتى الإضممار من غير ذكر مفسر وذلك اعتماداً على وضوح
المراد وادعاء أنه معروف حاضر فى القلب لا يخطر بالبال سواء كما
ترى فى مطالع القصائد التى تذكر الصاحبة بضمير عائذ عليها، مثل قوله:

(١) محاسن التواكيب، ص ١٨٩، د/ أبو موسى.

(٢) علوم البلاغة للمراغى، ص ١٤٢.

زارت عليها للظلام رواق وموقعه من الملاحه والعذوبة على ما
ترى، وقد يكون الإضممار خاليًا من هذه الإشارة، وإنما اعتمد فيه على
مجرد الوضوح فقط كما فى قول أبى بكر الهذلى بذكر تأبط شرا.

مما حملن به وهن عواقد حبك النطاق فشب غير مهبل

أراد فى قوله حملن به، النساء، ولم يجر لهن ذكر لوضوح المراد،
والمعنى كما يقول المرزوقى، هذا المعنى من الفتيان الذى حملت أمهاتهم
بهم وهن غير مستعدات للفراش ولا واضعات ثياب الحفلة، فنشأ محمودًا
مرضيًا لم يدع عليه بالهبل والتكل^(١).

(١) بحسبى الزاكيب، ص ١٩٠، د/ أبو موسى.

٢- وضع المظهر موضع المضمهر

لزيادة التقدير : والعجب أن البيانين لم يذكروه في أقسام الإطناب.
ومنه بيت الكتاب^(١) :

إذا الوحش ضم الوحش في ظلالها سواقط من حر وقد كان أظهر^(٢)
ولو أتى على وجهه لقال : "إذا الوحش ضمها".

وإنما يسأل عن حكمته إذا وقع في الجملة الواحدة، فإن كان في
جملتين مستقلتين كالبيت سهل الأمر، لكن الجملتين فيه كالجملة الواحدة،
لأن الرفع للوحش الأول فعل محذوف كما يقول البصريون والفعل
المذكور ساد مسد الفعل المحذوف، حتى كأنه هو، ولهذا لا يجتمعان، وإن
قدر رفع الوحش بالابتداء فالكلام جملة واحدة ويسهل عند اختلاف اللفظين
كقوله^(٣) :

إذا المرء لم يغش الكريهة أوشكت حبال الهوينى بالفتى أن تقطعا
فاختلاف لفظين ظاهرين أشبها لفظي الظاهر والمضمهر في
اختلاف اللفظ، وعليه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾^(٤) ثم قال :
﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾^(٥) ولم يقل يؤذونه، مع ما في ذلك من التعظيم،

(١) الكتاب : ١ : ٣١.

(٢) البيت للناطقة الجملى.

(٣) هو الكلمة البرعى.

(٤) النجدة : ٦١.

(٥) النجدة : ٦١.

فالجاء بين الوصفين، كقوله في الحديث "بيك الذي أرسلت" وقوله : ﴿لَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) ففيه قد كرر اسم الله ظاهراً في هذه الجملة الثلاث ولم يضم لدلائله على استقلال كل جملة منها، وأنها لم تحصل مرتبطة ببعضها ارتباط ما يحتاج فيه إلى إضمار.

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَّبِعُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾^(٢) وفيه دلالة على أن الطاغوت هو الشيطان، وحسن ذلك هنا تنبيهاً على تفسيره.

وقال ابن السيد : إن كان في جملتين حسن الإظهار والإضمار لأن كل جملة تقوم بنفسها، كقولك : "جاء زيد، وزيد رجل فاضل" وإن شئت قلت : "وهو رجل فاضل" وقوله تعالى : ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أعلم حيث يجعل رسالته^(٣) وإن كان في جمل واحد قبح الإظهار، ولم يكذب يوجد إلا في الشعر، قال : وإذا اقترن بالاسم الثاني حرف الاستفهام بمعنى التعظيم والتعجب كلن المناسب الإظهار كقوله تعالى : ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾^(٤) و﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ﴾^(٥) والإضمار جائز كقوله تعالى :

(١) البقرة : ١٠٦.

(٢) النساء : ٧٦.

(٣) الأنعام : ١٢٤.

(٤) الحاقة : ١، ٢.

(٥) القارعة : ١، ٢.

﴿فَأَمَّا هَآوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ﴾^(١).

ووضع المظهر موضع المضمّر فإِنَّه يشير إلى معان قد يكون بعضها من خصوص دلالة الاسم الظاهر الذى أوثر وضعه موضع المضمّر، فإذا كان المظهر اسم إشارة أفاد كمال العناية بتمييزه لأن الخبر عنه خبر غريب، كقول ابن الراوندى :

كم عاقل عاقل أعيت مذهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

والشاهد اسم الإشارة لأنه يعود إلى الحكم السابق عليه، وهو كون العاقل محروما والجاهل مرزوقا، فالمقام للضمير لأن هذا الحكم غير محسوس، واسم الإشارة موضوع للمحسوس، والحكم البديع الذى أسند إلى اسم الإشارة هو جعل الأوهام حائرة والعالم النحرير زنديقا^(٢).

وإما للتهكم بالسامع، كما إذا كان فاقده البصر أو لم يكن ثم مشار إليه أصلاً، وإما للنداء، على كمال بلاذته بأنه لا يدرك غير المحسوس بالبصر، أو على كمال فطانتته بأن غير المحسوس بالبصر عنده كالمحسوس عند غيره وإما لادعاء أنه كمال ظهوره حتى كأنه محسوس بالبصر، ومنه فى غير باب المسند إليه قول مرة بن عبد الله الهلالي :

تعاللت كى أشجى وما بك علة تريدن قتلى، قد ظفرت بذلك

والمعنى : تعاللت -لادعاء العلة- أشجى - بمعنى أحزن والشاهد فى وضع اسم الإشارة موضع الضمير لأن الظاهر أن يقال قد ظفرت به

^(١) القارعة : ٩٠، ١٠٠.

^(٢) بقية الإيضاح، ص ١٤٨ للشيخ عبد اللطيف الصعدي.

أى بالقتل، والداعى إلى ذلك هو ادعاء كمال ظهوره حتى كأنه محسوس
بالبصر.

وإن كان المظهر غير اسم إشارة فالعدول إليه من المضمهر إما
لزيادة التمكن أو الاستعطاف والخضوع الموجبين للشفقة كتقول إبراهيم بن
أدهم :

إلهى عبدك العاصى أتاك مقراً بالذنوب وقد دعماك

فإن تغفر فأنت لذاك أهل وإن تطرد فمن يرحم سواك

قال : عبدك، وهو يريد نفسه، وكان الظاهر أن يقول : أنا أتيتك،
ولكنه أثار قوله عبدك لأن فى كلمة عبد معنى التذلل والخضوع، ثم فى
هذه الإضافة ما يرشح الرجاء لأن فيه أننى عبدك الذى هو مضاف إليك
وكل هذا مما يحسن به سياق الضراعة والدعاء.

وقوله تعالى : ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(١).

يعمل ابن جنى لوضع "الذين ظلموا" المظهر فى المرة الثانية
موضع المضمهر فيما لو قيل : "فأنزلنا عليهم رجزاً" فيقول : لأن ذلك أشد
مبالغة فى ذمهم، وأدخل فى باب التفحيش لذكرهم، ولأن إظهار الاسم
المستحق للعقاب مع الإخبار بوقوعه به، أبلغ من إضماره وأجدر بخوف
الخائف من مشاركته فى وجه استحقاقه.

نقل ذلك عنه الشريف الرضى فى "حقائق التنزيل" ينظر به لقوله

^(١) البقرة : ٥٩.

تعالى : ﴿وَكَلِمَةً مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ تَرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(١) معللاً لتكرير لفظ الجلالة (الله) في محل الإضمار لو قيل : "وإليه ترجع الأمور" قال : إنما أعيد اسم الله تعالى هنا للتفخيم والتأكيد، ومن عادة العرب إذا أجروا ذكر الأمر يعتمدون تفخيمه ويقصدون تعظيمه أن يعيدوا لفظه مظهرًا غير مضمّر، إذا كان الإضمار بطاطئ من الاسم ويضائله، بقدر ما يرفع منه الإظهار ويفخمه وعلى ذلك قول الشاعر.

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقير

فلو قال : يسبقه شيء لكان معنيًا، ولكنه أعاد الاسم تفخيماً، ولم يرضى أن ينثي ذكره حتى ثلثه، مبالغة في الغرض الذي رماه والمعنى الذي نحا، ومثل ذلك قول أبي النشاش النهلبي :

فعلش مُعدماً، أو مت كريماً، فإنني

أرى الموت لا ينجو من الموت هاربة^(٢)

قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْظَرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا بَرَى إِلَّا مَسَاكِيَهُمْ كَذَلِكَ يَجْزِي الْقَوْمَ السَّاجِدِينَ﴾^(٣).

في هذا النص الكريم قد وضع لفظ "رب" المظهر مضافاً لضمير

(١) آل عمران : ١٠٩.

(٢) حقائق التنزيل، ج ٥، ص ٢١٣ للشريف الرضي.

(٣) الأحقاف : ٢٤ - ٢٥.

الريح محل ضمير المتكلم فيما لو قيل : "تدمر كل شيء بأمرى" أو "بأمرنا" مما يقتضيه السياق على غرار "كذلك نجزي القوم" وقد جاء بعده ﴿وَلَقَدْ مَكَأَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَأَهُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا...﴾ لاحظ هذا الزمخشري فقال : فإن قلت : ما فائدة إضافة الرب إلى الريح ؟ الدلالة على أن الريح وتصريف أعتتها مما تشهد لعظيم قدرته، لأنها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده، وذكر الأمر وكونها مأمورة من جهته عز وجل يعضد ذلك ويقويه^(١).

فإضافة هذا الاسم المظهر إلى ضمير الريح المفزعة المغيضة، يدل على مربوبيتها لمن هي أحد جنوده، وعلى كونه سبحانه وتعالى هو ربها الأمر لها بما تفعل، ولا تدل على شيء من هذا المغزى البعيد، إضافة الأمر إلى ضمير المتكلم لو قيل : "تدمر كل شيء بأمرنا".

ولفظ الربوبية حيثما وجد يفيد مثل هذه الدلالة من تولى الرب شأن المربوب بالنعمة، واستيلائه عليه بالقدرة، وتصريفه إياه بالحكمة، فإذا أضيفت إلى النبي والمؤمن كانت تكريماً وتشريفاً وتذكيراً حسناً بالولاية، وإذا أضيفت إلى غيرهما من البشر كانت تقديرًا بجحد حقها عليه، وإذا أضيفت لغير عاقل كانت دليلاً على سعة الملك وكمال القدرة وشمولها.

يقول صاحب الكشف فى قوله تعالى : ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ

رَبِّهَا﴾^(٢).

(١) الكشف، ج ٤، ص ٤٥.

(٢) التور: ٦٩.

وإضافة اسمه إلى الأرض، لأنه يزيناها حيث ينشر فيها عدله وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحق بين أهلها، ولا ترى أزيين للبقاع من العدل، ولا أمر لها منه، وقى هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذى يعدل فيها، وإنما يجوز فيها غير ربها^(١).

فسيادة قانون الشريعة فى الأرض، وإرسال القائمين بنشره وتطبيقه، من أجل النعم التى ترى عليها المربوب من ربه المتفضل بهذه التربية، فلفظ "رب" المضاف إلى ضمير الأرض، يناسب نعمة النور والإشراق التى استفاضت عنه فى خلقه، مما جعل ذلك الاسم المظهر فى موضعه أوفى وأولى من ضمير التكلم فيما لو قيل: "وأشرق الأرض بنورى" وإما لإدخال الروعة والمهابة فى نفس السامع نحو: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(٢) لا لتدراج كل كمال تحت، لفظ الجلالة فأجدر به أن يكون موضع التكلان.

وإما للتهكم والتعجب نحو: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا^(٣) ثم قال بعد ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾^(٤) فالغرض شدة التنكير عليهم والتعريض بأنهم حقاً أهل التمرد والعناد^(٥).

^(١) الكشف، ج ٤، ص ٤٥.

^(٢) آل عمران : ١٥٩.

^(٣) ص : ١، ٢.

^(٤) ص : ٤.

^(٥) علوم البلاغة للمرفعى، ص ١٤٤.

ومن التعبير بالمظهر موضع المضمهر، قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُشِنَ
إِذَا عَجَبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ فَلَمْ تَنْ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ
وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ
تَرَوْهَا ۖ ﴿^(١)

قال : إذا أعجبتم كثرتكم، فذكرهم بضمير المخاطب، ثم قال : ثم
أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وكان سياق الأسلوب أن
يقول : ثم أنزل الله سكينته عليكم، ولكن لما كان في إنزال السكينة لطفًا
بهم وتكريماً لهم قال : رسوله والمؤمنين فذكرهم بأوصاف التكريم
والتعظيم كأنه، فأنزل سكينته على هذا النبي الكريم وهذه الفئة الموصولة
بخالقها أوتق ما تكون الصلة^(٢) .

وواضح من هذه الشواهد أن هذه الإشارة إنما أوجحت لها دلالة
المظهر لأنها ذات خصوصية في السياق مثل : الذين ظلموا، والكافرين،
ورسوله - وهناك ضرب من وضع الظاهر موضع المضمهر يراد به هذه
الخصوصية تقرير المظهر وتمكينه في القلوب، ومن ذلك قوله تعالى :
﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ * اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿^(٣) بعد ذكر لفظ الجلالة وآثر المظهر على
الضمير، لأن اللفظ للجلالة يمدلوله الكريم وقمًا عظيمًا في القلب والمراد
تمكين الألوهية وإشاعة هجنتها في الضمائر.

(١) التوبة : ٢٥ - ٢٦ .

(٢) خصائص التواكيب، ص ١٩٢ د/ أبو موسى .

(٣) الإخلاص : ١ - ٢ .

وخذ المصحف وقرأ فيه من أى موضع تشاء تجد هذا الأسلوب وكأنه أصل من أصول البلاغة القرآنية، تجد أسماء الله الحسنى وخصوصاً هذا الاسم الأعظم تقع هذا الموقع فى كثير من الجمل القرآنية لينساب نورها الغامر فى القلوب وتثبيح مدلولاتها فتتمكن من النفوس زيادة تمكن وتتقرر فى السرائر أحسن قرار، وبذلك تثربى مهابة الحق وحده فى الأمة التى يرببها القرآن^(١).

وقد أدرك البلاغيون وحى الكامة وعملها بما يثيره لفظها من شئون النفس لا يستطيعها الضمير العائد عليها، فأشاروا إلى أن الكناية يعنون بها الضمير - والتعريض لا يعملان فى العقول عمل الإقصاص والتكثيف، فإذا كان الضمير يعطى إشارة ذهنية إلى العائد عليه تحضره فى النفس، إلا أن قدرًا كبيرًا من التأثير يظل الاسم الظاهر محتفظًا بها، ولا يستطيع الضمير حملها نيابة عنه لأنها تتولد حين يقرع اللفظ السمع بجرسه وارتباطاته المختلفة جد الاختلاف والتى اكتسبها فى قصته الطويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾^(٢) فإنه من الواضح أنه لو قيل : وبه نزل، لكان الضمير عائدًا على الحق ومؤيدًا معناه من حيث الدلالة النحوية، أو الدلالة المنطوقية، ولكن يبقى لكلمة الحق من القدرة على إشارة قدر كبير من الخواطر لا ينهض الضمير بشيء منها.

وليس ذلك خاصاً بكامة الحق ودلالاتها الإنسانية الخصبة وإنما

(١) محاسن التواكيب، ج ١٩٢ / ٥ أبو موسى.

(٢) الإبراء : ١٠٥.

يجرى فى كثير من الكلمات التى لها فى سياق الحديث مكان خاص، انظر
إلى قول النابغة :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والإقداما

نجدّه لم يقل : نفس عصام سودته وإن كان الضمير عائداً على
عصام من غير لبس لأنه أراد أن تقع السيادة من نفس عصام على عصام
هكذا بلفظه.

قال عبد القاهر : «لا يخفى على من له ذوق حسن هذا الإظهار،
وإن له موقعاً فى النفس وباعثاً للأريحية لا يكون إذا قيل نفس عصام
سودته، شئء منه البتة».

أهم المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- أمالي المرتضى للمرتضى.
- ٣- أسلوب التغليب د/ محمود عبد العظيم صفا.
- ٤- البرهان في علوم القرآن للزركشى.
- ٥- البحر المحيط لأبى حيان.
- ٦- بديع القرآن لابن أبى الاصبع، ت : حنفى شرف.
- ٧- البديع لابن المعتر، تحقيق كراتشوفسكى .
- ٨- بغية الإيضاح لعبد المتعال الصعدي.
- ٩- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة.
- ١٠- تفسير أبو السعود.
- ١١- التفسير الكبير لفخر الدين الرازى.
- ١٢- حاشية الشهاب على البيضاوى للبيضاوى.
- ١٣- حقائق التنزيل للهريرف الرضى.
- ١٤- الخزانة لابن حجة الحموى.
- ١٥- الخصائص لابن جنى.
- ١٦- خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى.
- ١٧- روح المعانى للألويسى.
- ١٨- درة الخواص فى أوهام الخواص للنيسبورى.
- ١٩- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني.

- ٢٠- شرح الكافية للرضى الاسترأبازى.
- ٢١- شروح التلخيص.
- ٢٢- الصاحبى لابن فارس.
- ٢٣- صحيح البخارى.
- ٢٤- عروس الأفراح لبهاء الدين السبكى ضمن شروح التلخيص.
- ٢٥- عقود الجمان للسيوطى.
- ٢٦- علوم البلاغة للمراغى.
- ٢٧- العمدة لابن رشيق القيروانى.
- ٢٨- فن البلاغة د/ عبد القادر حسين.
- ٢٩- الكتاب لسبويه.
- ٣٠- الكشف للزمخشري.
- ٣١- الكامل للمبرد.
- ٣٢- مجاز القرآن لأبى عبيدة، تحقيق د/ محمد فؤاد مزيكين.
- ٣٣- المحتسب لابن جنى.
- ٣٤- المطول لسعد الدين التفتازانى.
- ٣٥- معترك الأكران للسيوطى.
- ٣٦- معانى القرآن للقراء، تحقيق د/ نجاشى.
- ٣٧- المفردات للفضل الضبى.
- ٣٨- منهاج البلغاء حازم القرطاجنى، تحقيق الحبيب بن خوجة.
- ٣٩- المقضب للمبرد.
- ٤٠- المذاهج الواضح حامد عونى.

فهرست الموضوعات

| الموضوع | الصفحة |
|---------------------------------------------------|--------|
| ١- التغليب. | ٧ |
| ٢- أسرار الإفراد فيما ظاهره التشية. | ١٣ |
| ٣- أسرار الإفراد فيما ظاهره الجمع. | ٢٣ |
| ٤- أسرار التشية فيما ظاهره الإفراد. | ٣١ |
| ٥- أسرار الجمع فيما ظاهره الإفراد. | ٣٩ |
| ٦- أسرار الجمع فيما ظاهره التشية. | ٥١ |
| ٧- أسرار التشية فيما ظاهره الجمع. | ٥٧ |
| ٨- تغليب المتكلم على المخاطب والمخاطب على الغائب. | ٦٥ |
| ٩- تغليب التذكير على التأنيث. | ٨٣ |
| ١٠- تغليب التأنيث على التذكير. | ٩٧ |
| ١١- التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل وعكسه. | ١١٣ |
| ١٢- الالتفات والقلب. | ١٢١ |
| ١٣- أسلوب الحكيم وتجاهل العارف. | ١٣٩ |
| ١٤- وقوع الخبر موقع الإنشاء وعكسه. | ١٥٧ |
| ١٥- المظهر والمضمر وعكسه. | ١٦٩ |
| قائمة المصادر والمراجع | ١٨٧ |
| فهرست الموضوعات | ١٨٩ |

22

35

eca Alexandrina



0682724